# تاريخ ماردين

## من كتاب «أم العبر»


تأليف

مفتي ماردين الشيخ عبدالسلام المارديني

المتوفى سنة (١٢٥٩هـ)

تحقيق

حمدي عبدالمجيد السلفي    تحسين ابراهيم الدوسكي







# تاريخ ماردين

## من كتاب «أم العبر»

تأليف

مفتي ماردين الشيخ عبدالسلام الماردیني

المتوفى سنة (١٢٥٩هـ)

تحقيق

حمدي عبدالمجيد السلفي    تحسين ابراهيم الدوسكي

دهوك: ٢٠٠٢



# المقدمة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شـــرور أنفسـنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسـلمون ﴾ [ آل عمران :١٠٢ ] .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجـها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنَّ الله كـان عليكم رقيباً ﴾ [ النساء : ١ ] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سـديـداً . يصلح لكم أعمـالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومـن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيمـاً ﴾ [ الأحـزاب :٧٠،٧١ ] .

أما بعد : فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد صلـى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتُها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكـل ضلالة في النار .

يعد كتاب أم العبر لمفتي ماردين الشيخ عبد السـلام بـن عمـر ( ١٢٠٠ ١٢٥٨ هـ ) ولاسيما فصوله الأخيرة من الكتب التاريخية المهمة التي تؤرخ لبعض مناطق كردستان وهـي ماردين والمناطق المحيطة بِها غربـي كردستان ، والكـاتب

وإن كان يؤرخ ـ على عادة المؤرخين القدامى ـ للحكام والولاة بالدرجة الرئيسية إلا أنه يذكر معلومات غير قليلة عن التركيبة الإجتماعية والعمرانية لمدينته ، ويورد أخباراً مهمة عن العشائر الكردية ـ والعربية كذلك ـ المحيطة بالمنطقة معتمداً في ذلك على مصادر أهمها مشاهداته ومذكراته الشخصية ، مما يضفي على الموضوع الجدة والحيوية .

وبالرغم من أهمية الكتاب التاريخية إلا أن بقاءه مخطوطاً حال بين استفادة الباحثين والقراء منه ، لذلك ارتأينا تحقيق هذا الكتاب ونشره ، إحياءاً منا لتراث علمائنا ومشاركة في نفض غبار النسيان عن جوانب مجهولة من تاريخ شعبنا ، ويجدر بنا أن نذكر الإخوة القراء أننا اخترنا القسم الثاني من الكتاب للنشر فقط وهو القسم الذي يعنى بتاريخ ماردين لأهميته التاريخية وندرة المعلومات الواردة فيه ، وأعرضنا عن نشر القسم الأول من الكتاب لكثرة المصادر المتوفرة التي تتناول هذة المراحل الزمنية .

والله نسأل أن يوفقنا لما يحب ويرضى .

مدينة دهوك

٩ جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ

٢٩ تموز ٢٠٠١ م

# مفتي ماردين الشيخ عبد السلام
# وكتابه ( أم العبر ) في التاريخ

## مفتي ماردين الشيخ عبد السلام :

لقد أورد المؤلف في كتابه هذا بعض المعلومات القليلة التي تخصه وأسرته منها نسبه فقد ذكر أن اسم والده هو عمر بن محمد بن عمر بن إبراهيم بن محمد بن السيد عمر بن الحاج محمد زين العابدين بن الحاج عبد القادر .. ولم يزد على هذا النسب شيئاً .

وفي معرض حديثه عن حكم حسن باشا الطويل الآق قوينلي يذكر أن حسن الطويل فوض شؤون دياربكر وماردين إلى أخيه قاسم پادشاه الذي عهد بدوره أمر ماردين أثناء غيابه عنها لابن أخته إبراهيم بك وأقامه والياً عليها ( وقد بقي إبراهيم بك هذا والياً على ماردين حتى حدود سنة ٩٠٥ هـ ـ ١٥٠٠ م ) .

ويذكر أن إبراهيم بك بنى بماردين جامعاً لطيفاً كان يعرف بجامع التكية ، وإلى جانبه زاوية ، وعمَّرت زوجته خديجة خاتون إلى جانب الجامع مدرسة فاخرة تعرف بالخاتونية ، ويقال : إنَّه لما فرغ من عمارة الجامع والمدرسة وعيَّن لهما من القرى والوظائف والأرزاق اختار لتولية الجامع والمدرسة والزاوية أحد أجداد المؤلف وهو الحاج عبد القادر ـ وهو أول شخص يعرف من هذه الأسرة على ما يبدو ـ وجعله إماماً وخطيباً ومتولياً على الزاوية والجامع ، وجعله متولياً ومدرساً على المدرسة ، ثم بعد وفاته انتقلت هذه الوظائف إلى ولده الحاج محمد زين العابدين ، ثم إلى ولده

السيد عمر ، ثم إلى ولده محمد ، ثم إلى ولده إبراهيم ، ثم إلى ولده الحاج عمر ، ثم إلى ولده محمد ، ثم إلى ولده عمر وهو والد المؤلف . ولذلك كان رجال هذه الأسرة يعرفون بهذه الوظيفة فيقال في أحدهم : فلان بن خطيب التكية .

كان والده عمر أفندي المعروف بخطيب التكية يتولى قضاء ماردين ، كما أورد المؤلف ذلك بنفسه في حوادث سنة ١١١٩ هـ ، وقد ذكر أن ملي زاده عيسى بك تولى حكم ماردين في هذه السنة ، وأنه لما قدم من بغداد إلى نصيبين مكث هناك وأرسل عسكراً من العمريانية والداشية ( وهما من عشائر ماردين الكردية ) صحبة أخيه محمد نجيب بك ، وأمرهم أن يقتلوا ثلاثة من وجوه بلدة ماردين وهم : قاضي ماردين عمر أفندي والد المؤلف ، وكوپرلي زاده محمد آغا ، وكان يتولى الوكالة بماردين عن الحكام في بعض الأحيان وأوزون علي آغا الجوزي فدخل العسكر فجأة بالليل وتفرق على البيوت الثلاثة ، وأحاطوا بالبيوت وقتلوهم في ديارهم يوم الاثنين يوم التاسع من جمادى الآخر من العام المذكور . ويذكر المؤلف أنه كان حينئذ حملاً لم يولد ، ولم يورد سبباً لقتل الحاكم لوالده .

وعن ولادة المفتي عبد السلام المارديني فتذكر المصادر [(١)] أنها كانت في سنة ١٢٠٠ هـ وإذ كان مقتل والده في الشهر السادس من سنة ١٠٩٩ ه فإن ولادته تحدد في الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٢٠٠ ه وهي تصادف أواخر سنة ١٧٨٥ م [(٢)] .

لم نعرف شيئاً عن تفاصيل نشأته ولا طريقة تعليمه ، والظاهر أنه تلقى تعليمه في مدارس ماردين وكتاتيبها حتى أكمل دراسته ونال حظاً وافراً من العلوم لدرجة أن من يترجم له يذكر أنه كان فقيهاً مؤرخاً محدثاً منطقياً .. كما كان أديباً شاعراً ،

---

(١) إيضاح المكنون ( ١٢٧/١ ) وهدية العارفين ( ٥٧٢/١ ) لإسماعيل بن محمد البابانـي البغدادي ، ومعجم المؤلفين ( ١٤٩/٢ ) لعمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٣.

(٢) ذلك لأن أول سنة ١٢٠٠ هـ يتحدد في الرابع من تشرين الثاني من سنة ١٧٨٥ م .

وقد أورد لنفسه في كتابه هذا قصيدة ونسبها لنفسه أهداها إلى حاكم ماردين خليل أفندي البغدادي ( حكم ١٢٣٩ ١٢٤٠ ) لعله يرعوي عما فيه - كما يذكر المؤلف - ومن جملتها هذه الأبيات :

| | |
|---|---|
| يا مالكَ الأعناقِ مَنْ ذكرُهُ | مَلأَ الطباقَ و هابَهُ الأقوامُ |
| رفقاً بأحوالِ الرعية إنَّهُمْ | مُستَضْعَفونَ وبينَهُمْ إسلامُ |
| ما هذه الدنيا بدارِ إقامةٍ | هل كانَ فيها لِلأنامِ دوامُ ؟ |
| فسرورُها أبداً يزولُ وصفوها | كدرٌ وطيبُ نعيمِها أحلامُ |
| والأمرُ أمرُكَ كيفما تختارهُ | فالعدلُ يُحمَدُ والظلومُ يُلامُ |
| إنَّ الأجلةَ لا يليق بشأنهم | إلا الجميلُ لأنَّهم أعلامُ |
| ولأنتَ أولى بالذي أمَّلتُهُ | ولأنتَ راعٍ والورى أغنامُ |

كلفه حاكم ماردين شيخ زاده عثمان باشا بن إبراهيم باشا الآمدي ( حكم ١٢٤٧ ١٢٤٨ هـ ) حمل الفتوى بماردين إليها وأرسل عرضاً ومحضراً إلى الدولة العلية لجلب المنشور بذلك وقلّده إياه ، فأصبح رسمياً مفتياً لماردين . ويقول عن ذلك : ( وأني لست لأمر الإفتاء أهلاً ، بل ظنه مني أمراً سهلاً ، وإلى الله المشتكى من زمان كثر فيه العتوق ، ولم يجر فيه الحقوق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ) .

أما بالنسبة لآثاره فإنه فضلاً عن كتابه هذا في التاريخ - وسنأتي على ذكره مفصلاً في الفقرة التالية إن شاء الله - ترك جملة من الآثار ، منها :

١- رسالة في شرح البسملة والفاتحة الشريفة ، وهي مهملة خالية عن النقط ، وقد أهداها لوالي بغداد الوزير علي باشا لما قدم إلى ماردين وضرب خيامه بقرية حرّين . فوقعت لديه موقع القبول ، وأكرم نزله .

٢- شرح الكافي في فني العروض والقوافي ، كتبه لوالي بغداد دادود باشا عندما تولى وزارة بغداد ، فأكرمه الوالي وعين له من مال جزية ماردين كل يوم قرشاً ، ولما تولى علي باشا ولاية بغداد زادها له وعملها كل يوم قرشين .

وقد ذكر لنفسه هذين الأثرين في تاريخه هذا .

٣- أسماء رجال الحديث ، ذكره صاحب ( معجم المؤلفين ) ٥/٢٢٩ .

٤- رسالة في المنطق ، ذكرها أيضاً صاحب معجم المؤلفين ، وفي حوزتنا نسخة خطية منها .

٥- رسالة في علم البديع ، في حوزتنا نسخة خطية منها .

٦- كتاب أم العبر في التاريخ ، وهو كتابنا هذا ..

أما عن تأريخ وفاته فتذكر المصادر أنه مات سنة ١٢٥٩ هـ ( المصادفة لسنتي ١٨٤٢ و ١٨٤٣ م ) ، ولعله الصواب ؛ لأنه في تاريخه هذا يذكر حوادث ماردين حتى يصل إلى سنة ١٢٥٨ هـ ويقف عندها ، وقد جاء في نهاية مخطوطة الكتاب التي تحت أيدينا قول الناسخ : ( قد وقع الفراغ من تسويد هذا الكتاب وهو من مؤلفات شيخنا ومرشدنا السيد عبد السلام أفندي المفتي الماريني ، نفع الله تعالى بعلومه كافة الطالبين آمين . وقد وجد على النسخة المنقول منها هذا الكتاب قوله : وأنا الفقير إبراهيم المحمدي الشرابي بن ملا أحمد المهدوب ، وذلك في بلدة ماردين ، فجر يوم الأربعاء غرة شعبان المعظم سنة ١٢٥٩ ، والله الموفق والمعين ، لأجل أخينا في الله ملا مصطفى بن الروضة الماريني ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ) . ولعل في عدم ترحم الناسخ ـ وهو من تلاميذ المؤلف ـ على المؤلف سنة ١٢٥٩ عند ذكر اسمه دليلاً على أنه كان حياً حتى تلك السنة .

كتاب ( أم العبر ) :

وهو الكتاب الذي نحن بصدد نشره الآن ، ويعرف بتاريخ ماردين أيضاً من قبيل تسمية الكل بالجزء ، وقد أخطأ بعض الباحثين إذ ظنوا أن تأريخ ماردين كتاب مستقل عن ( أم العبر ) والحقيقة هي أنَّهما كتاب واحد .

وكتاب ( أم العبر ) كتاب تاريخي موسع أتى فيه المؤلف على ذكر الدول الغابرة ، وأبرز حوادث التأريخ الإنساني ، وقد قسم كتابه كما يلي :

( الطبقة الأولى في ذكر أولي العزم من الأنبياء ، فصل في ذكر الأئمة المجتهدين ، الطبقة الثانية في ذكر الملوك الماضية قبل الدولة المحمدية ، الطبقة الثالثة في ذكر الخلفاء الراشدين ، الطبقة الرابعة في ذكر خلفاء بني أمية ، الطبقة الخامسة في ذكر خلفاء بني العباس ، الطبقة السادسة في ذكر ملوك شتى ، فصل في ذكر آل جنكزخان ، ذكر نبذة من أحوال تيمور ، تتمة في ذكر صفات تيمور البديعة وما جبل عليه من طبيعة ، فصل في ذكر دولة آل سلجوق ، فصل في ذكر دولة آل بويه ، فصل في ذكر الدولة الصفارية ، فصل في ذكر الدولة الفاطمية ، فصل في ذكر الدولة الغزنوية ، الطبقة السابعة في ذكر سلاطين آل عثمان ، فصل في استيلاء بونابورت على القاهرة ، فصل في ذكر الدولة الأرتقية ، فصل في ذكر الدولة القرهقونيهلية ، فصل في ذكر الدولة الآق قونيهلية ، فصل في ذكر خروج الشاه اسماعيل ، فصل في ذكر أحكام ماردين وحكامها وهو خاتمة الكتاب ) .

وهو في عرضه للحوادث يسلك مسالك المؤرخين المسلمين القدامى والمعاصرين له ، ويركز بالدرجة الأساسية على ذكر السلاطين والملوك وما جرى لهم من الوقائع ، وهو يكثر من إيراد الأبيات الشعرية ولا ينسبها أحياناً ولعل بعضها من نظمه إذ المعلوم أنه كان ينظم بالعربية كما أسلفنا .

والذي بين يدي القراء في هذا الكتاب هو الفصل الأخير فقط من كتاب ( أم العبر ) وهو الفصل الخاص بتأريخ ماردين ، وقد استخرجنا هذا الفصل فقط من

الكتاب لأهميته واشتماله على معلومات دقيقة لأحدى كبرى مدن كردستان الشيء الذي يساعد المؤرخ على تشكيل صورة واضحة المعالم لبعض مناطق كردستان في القرون الأخيرة ، وقد أعرضنا عن تحقيق الفصول الأخرى من الكتاب لكونها تشتمل على معلومات متوفرة بكثرة في المصادر الأخرى الموجودة .

وصف مخطوطة الكتاب :

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب على نسخة خطية وحيدة للكتاب ، لم يذكر الناسخ في النهاية اسمه ولا تأريخ نسخه للكتاب ، والظاهر أنه من تلاميذ المؤلف فقد ذكر في الختام أنه ( وقع الفراغ من تسويد هذا الكتاب وهو من مؤلفات شيخنا ومرشدنا السيد عبد السلام أفندي المفتي المارديني نفع الله تعالى بعلومه كافة الطالبين آمين ) ولعله كتب نسخته في حياة المؤلف إذ لم يترحم عليه كما هو أدب الكتاب المسلمين مع الموتى ! وقد ذكر الناسخ أنه : ( قد وجد على النسخة المنقول منها هذا الكتاب قوله : وأنا الفقير إبراهيم المحمدي الشرابي بن ملا أحمد المهدوب ، وذلك في بلدة ماردين ، فجر يوم الأربعاء غرة شعبان المعظم سنة ١٢٥٩ ) . أما مخطوطة الكتاب فتتألف من ( ٢٨٠ ) صفحة بقياس ٢٠ × ٢٩ سم في كل صفحة ( ٢٥ ) سطراً ، والفصل الخاص بتأريخ ماردين يشغل الصفحات من ( ١٧٤ ) إلى ( ٢٨٠ ) وهو نهاية الكتاب .

# فصل

## في ذكر أحكام ماردين وحكامها

والسبب في تسميتها أن ملكاً من ملوك الفرس كان له ولد يسمى : ( ملودين ) وكان به مرض عجز عنه الأطباء ، فأشار بعض الأطباء على والده وقالوا : لابد له من مكان مرتفع يجري به الفصول الأربعة ليؤثر به الدواء . فتفحصوا فلم يجدوا سوى جبل الغراب بقرب جبل بارون ، فأرسله أبوه صحبة الأطباء ، فمكث غير بعيد ، فعافاه الله تعالى من مرضه ، وطاب له المكان واتخذه موطناً ، فنسب إليه [٣] ، كما قيل :

تَـنَـقَّـلْ فَلَذَّاتُ الـهوى بالتَّنقُّلِ
وَرِدْ كُـلَّ صاف لا تَـرِدْ كُلَّ مَنهَلِ
وَإنْ سارَ مَنْ تـهوى فسِرْ عن جَنابهِ
ولا تبكـينْ دمعاً عـلى مـتُـرَحِّلِ

(٣) من عادة قدامى البلدانيين أنهم ينسبون كل بلد إلى بانيه سواء كان شخصاً حقيقياً أو أسطورياً ، وقد يطلق الاسم على البلد بما يتناسب وواقعه الجغرافي ، على هذا قيل في تعليل اسم ماردين : إنه مأخوذ من اسم باني المدينة كما يذكر المؤلف ، وقيل : إن اسم ( مارد ) يطلق في السريانية على الحصن ، لذلك لأن المدينة كانت في القديم حصناً منيعاً ، وماردين مدينة قديمة جداً ، عرفت في التأريخ بعدة أسماء كلها متشابهة إلى حد ما ، وللتفصيل راجع كتاب ( مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة ١٥١٥ م ٩٢١ هـ ) إعداد د . حسن شميساني ، ط١ سنة ١٩٨٧ م ، عالم الكتب ، بيروت ، ص ١١-١٣ .

ولا تعتَبرْ قولَ امرئ الـقيسِ إنَّـه
مُـضِـلٌ ومَن ذا يهتدي بِمُضللِ
فـفـي الأرض أحبابٌ وفيها منازلٌ
فـلا تبكِ مِنْ ذكرى حبيبٍ ومَنـزلِ [٤]

وكان ماردين المنحوس يدين بدين المجوس ، واتبع شيطانه وهواه وعبد النار من دون الله ، وأضرم النار فوق جبل الغراب ، وعبدت عليه النار قريباً من ألف سنة ، وكان يسكنه زهاد المجوس وعبادهم ، ويجلب إليهم الهدايا والتحف من كل مكان حتى استولى عليه آرسويس بن جارش [٥] وبنى القلعة ، وربضها ، ونظم أحوالها على أحسن النظام إلى أن انتزعها منه الإسلام ـ كما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ .

واعلم أن مدينة ماردين واقعة في الإقليم الرابع الذي هو متعلق للشمس [٦] ، وهي مدينة أرض ربيعة العظمى ، وأرض ربيعة قيل في أوصافها : هي أرض كثيرة العشب والنبات ، كثيرة الخصب والخيرات، وأهلها من ذوي الشجاعة تقبل الجور والاعتساف ولا تقبل العدل والإنصاف ، وتنسب إلى ربيعة بن نزار وهو أخو مضر ابن نزار ، ومضر من أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقال لهذه الأرض : أرض ربيعة ، وأرض الجزيرة ، وما بين النهرين . وربيعة ـ بفتح الراء وكسر

(٤) لم نطلع على قائل هذه الأبيات ، والأبيات التي تليها .

(٥) هكذا جاء في المخطوطة ، وفي المصادر : ( آرسويس بن جارس ) وقد كانت ماردين بيد آرسويس هذا عندما فتحها المسلمون ، وكان يحكمها من قبل هرقل إمبراطور بيزنطة ، ويرى المؤرخون أن أهل ماردين دخلوا النصرانية في نهايات القرن الثالث الميلادي ، كما تدل على ذلك بعض آثارها القديمة .

(٦) وهي على خط طول ٤٠ درجة شرقاً ( شرق غرينتش ) وعل خط عرض ٣٨ درجة شمالاً ، وتقع فوق منحدر صخري بارتفاع ١١٠٠ م وفي منتصف الطريق بين رأس العين ونصيبين ( راجع المصدر السابق : ٢١ ) ومدينة ماردين اليوم تقع ضمن حدود الدولة التركية وتكون مركز ولاية .

الباء ـ ومنهم من يقول بالتصغير ، ويلقب ربيعة بربيعة الفَرَس ؛ لأنه ورث فرساً موصوفة من أبيه نزار ، ويلقب مضر بمضر الحمراء ؛ لأنه ورث الخيمة الحمراء ، وكثيراً ما جاء في الشعر ، كقول بعضهم :

شَيخٌ لنا منْ ربيعةَ الفَرَسِ يُنتِّفُ عُثنونَه مِنَ الـهَوَسِ
فأَنطقَهُ الله بالبَيانِ كما رَمَاهُ وقت الديوانِ بالخَرسِ

وقول الآخر :

وَهُمْ مَنَعوها مِنْ قُضاعَةَ كُلّها وَمِنْ مُضَرَ الحمراءِ عندَ التعاورِ

واقتسما بينهما الأرض ، فنسبت أرض مضر إلى مضر الحمراء ، وأرض ربيعة إلى ربيعة الفرس ، والنسبة إلى مضر مضري ، وإلى ربيعة ربعي . وحد هذه الأرض ـ أعني أرض ربيعة ـ عرضاً من ماردين إلى أقصى مدائن الخابور ، وطولاً من الرقة إلى سعرت ، وأكثر سكانها من طائفة الأكراد .

وأما بلدة ماردين فهي ذات ثلاثة سناجق : نصيبين ، والخابور ، وسنجار . وكانت مدناً عامرة وقد استولى عليها الخراب ، يتولاها شيخ الشطي عن حكام ماردين ، يتولى منها على الخابور وسنجار دون نصيبين ، وأما ديار ماردين ففيها زيادة عن ثمانية آلاف دار ، وزيادة عن ثمانمائة حانوت ، ويوجد بها من جميع الحرف ، وبها من الجوامع والمدارس والمساجد نحو مائة ، وبها ثلاث مئذنات عامرة ومئذنتان خرابتان ، الواحدة في ربضها والأخرى فوق القلعة ، وخمس حمامي ، وأربعة عشر حارة ، وخان واحد ، وبها عين تعرف بعين البيمارستان ، وماؤها ينفع للحكة والجرب غسلاً وشرباً ، وعين تعرف بعين الجوزة بالقرب من باب الصور ، وماؤها يورث القولنج .

وماردين قليلة المياه وأكثر استعمالهم من ماء المطر ، وهي بلدة محكمة البنيان ، ويوجد بها بعض البيوت والمساجد مؤرخة منذ خمسمائة عام ، ومكانها مرتفع يمتد منها البصر نحو ثلاثة أيام ، وبشرقي البلد جبل بارون أحد الجبال العظام ويتصل

بالجودي ، وحدها طولاً من حدود آمد السوداء إلى الخابور ، وعرضاً من الصهركية إلى سنجار ، ولها من العشائر والقبائل : سنجار وهي خارجة عن الطاعة ، والطي ، والحيالية ، والبونصرية ، والشافصنية ، والدراجية ، والبينارعلية ، والدقورية ، والخواص ، والشيخانية ، والملية ، والكيكية ، والصهركية ، والغرسية ، وأيضاً شيخانية ، وبعض الدنبلية ، والسركچيه ، ونحو ذلك من العربان كالغنامة ، والبكارة ، والشرابية ، والحديدية ، وبني سبعة ونحوهم ، وكذلك الآشتير ، والعمريانية ، والاقكورية ، فإنهم وإن كانوا من آمد والجزيرة عزلهم ونصبهم بيد حكام ماردين . وكل ما ذكرنا من العشائر والقبائل يحتوي على قرى متعددة ، وأما بساتينها فكثيرة تشتمل على أودية ، فمن ذلك : وادي باغ الغراء ، ووادي السيخ ، ورشمل ، وقبالا ، ونهراس ، وبلابيل ، وكذلك أودية الزنار كوادي باسپانوس ووادي الصفا وباكان وبركة الجمل والشادول والفردوس والروضة ونحوها ، وكل واد يشتمل على عدة من البساتين والكروم ، العنب ، وفيها من الأجاص المشهور ، لا تؤخذ برمح ولا سيف ولا يرهقها مس حيف ، وهي بكر لم يدنسها لامس ، ولا استغشاها واكس ، وجدير أن ينشد فيها هذا المصراع :

وَفيهِ صنعةُ القلبِ سورُ حِماها بِرَبِّها محروسُ

بها جامع ومسجد وهو مقام الخضر ـ عليه السلام ـ وأكثر من مائة دار وأبيارها بعدد أيام السنة ، وعليها أربعة أبواب أحدهم داخل الآخر ، وبابان يعرفان ببابي السر ، أحدهما من جهة القبلة ، والآخر من جهة الشمال ، وتعرف بقلعة الغراب لما كان بها من الغرابيب ، وأول من سكنها ماردين وكان على دين المجوس ، ومن بعده سكنها عباد المجوس ، وعبدوا عليها النار مقدار ألف سنة حتى استولى عليها آرسويس بن جارش ، وكان على دين النصارى (٧) ، وكان يسكن

---

(٧) خضعت ماردين للآراميين في حدود القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، ثم خضعتا للآشوريين والأرشاقيين والفرثيين ، ثم جاء الفرس وحكموا ماردين في القرن الثالث قبل الميلاد في عهد

طبرزنده من بلاد الروم ، وكان فارساً شجاعاً وبطلاً مناعاً ، وكـــان مــــن بيـــت السلطنة ، وكان له قرابة بالملك هرقل ، وكان كثير الجور والظلم فاستغاثت الـــروم بالملك هرقل وشكوا حالهم منه ، فنفاه الملك هرقل عن بلاد الروم ، فخرج منـــــها حتى أتى إلى أرض ربيعة فأعجبته قلعة ماردين إلا أنها كانت بيد المجوس وبـــها عابد منهم يجلب إليه الهدايا من كل مكان ، فخدعه آرسويس بالهدايا والتحــف ، حـــتى استأذنه بالزيارة فأذن له ، فلما صعد القلعة ودخل عليه ضرب عنقه بالسيف ، وقتل من كان عنده من المجوس ، وأطفأ نارهم ، واتخذ القلعة له مسكناً وعمَّـــر ســـورها وألبسه من الديباج ثم شرع في تعمير ربضها أيضاً ، واجتمع إليه الخلق مـــــن كـــل مكان ، وعمَّر القرى والمزارع أيضاً ، وعمَّر قلعة صغيرة لابنته مارية تجاه قلعتــــه ، وسيأتــي الكلام عليها ـ إن شاء الله تعالى ـ . ولم يزل آرسويس مشتغلاً بعمـــــارة بلده حتى أخذها الإسلام من يده .

---

أردشير بن بابك ، ثم كانت الوقائع سجالاً بين الفرس والروم ، وكانت المنطقة تديـــن بـــالولاء للغالب من الطرفين ، وكانت ماردين عشية الفتح الإسلامي في القرن السابع الميــــلادي تديـــن بالولاء للرومان ، وكان يحكمها كما سبق آرسويس بن جارس من قبل هرقل .

# فصل
## في استيلاء الإسلام على قلعة ماردين

اعلم أن الله تعالى لما فتح البلاد على يد المسلمين ودخلت تحت حكمهم ذات اليمين وذات الشمال وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، وملكهم الحجاز واليمن ومصر والشام ، فانتهت النوبة إلى فتوح ما بين النهرين ، فقصد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً مدائن الخابور ، وكان أمير الجيش حينئذ عياض بن غُنم رضي الله تعالى عنه [٨] وذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه سنة ثمانية عشر من الهجرة ، فافتتح عياض بن غنم مدائن الخابور صلحاً ، ثم سروج ، ثم حران ، ثم قرقيسا ، ثم توجه نحو رأس العين ، ويقال : أهل عين ورده [٩] ، وكان بها ملك من الملوك العظام ينقاد إليه أهل ربيعة في الكلام ، وكان قد ملك فيها رقاب الخاص والعام ، وكان يدعى :

(٨) هو أبو سعد عياض بن غُنم الفهري القرشي من المهاجرين الأولين ، شهد بدراً وما بعدها ، وكان سمحاً جواداً شجاعاً ، وهو الذي افتتح أغلب مناطق كردستان ، ويعد أول من جاز درب الروم غازياً ، استنابه أبو عبيدة بعده على الشام فأقره عمر عليها إلى أن مات رضي الله عنه سنة عشرين من الهجرة عن ستين سنة ، وانظر ( البداية والنهاية ) لابن كثير ١٠٣/٧ ، مكتبة المعارف بيروت ، ١٩٨١ .

(٩) هذه الرواية التي أوردها المؤلف مأخوذة من رواية أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي ( ت ٢٠٧ هـ ) الواردة في ( فتوح الشام ) ١/ ١١٧-١٢٢ ، ط دار الجيل بيروت ، وفيها غرائب !

شهريام [١٠] بن الملك بهرام ، فتحقق عنده قدوم الإسلام وأنه قد حل بـــه الويـــل والبلاء فجمع البطارقة والرؤساء واستشار بهم في أمر المسلمين وكيف يكون حـلهم مع المشركين ، فبعضهم أشار عليه بالهزيمة وبعضهم أشار بأداء الجزية وبعضهم أشار بالمحاربة ، فقام بطريق من بطارقته يسمى توثا [١١] ، وقـــال : أيـــها الملـــك ! إن العرب قد ملكوا البلاد وأذلوا العباد ، وهم من أهل الشجاعة والقوة ، ولا قدرة لنا على حربـــهم إلا بالعساكر الوافرة والجنود المتكاثرة والرأي عندي ، وذلـــك أن تخطب مارية ابنة الملك آرسويس صاحب قلعة ماردين لولدك عامودا ، لأنه كثـــير الدولة كبير الصولة وتحت يده عساكر وافرة ليكون لنا عضداً وعوناً علـــى قتـــال العرب . فاستصوب الملك شهريام رأي توثا وقال : أنت المفوض لهذا الأمر .

فتوجه البطريق توثا من وقته وساعته إلى الملك آرسويس ومعه الهدايا والتحـــف مـــن الملك شهريام حتى قدم على الملك آرسويس فدخل عليه وقبَّل الأرض بـــين يديه ، فأكرمه وأجلسه فسلمه الهدايا والتحف مـــن الملك شهريام . وقال : أيـــها الملك المعظم ! قد جئتك بحاجة من أعظم الحوائج إن أذنت لي بـــالكلام عرضـــت عليك حاجتـــي ، فأذن له ، فقال : أيها الملك ! إن هؤلاء العرب قد ملكوا الدنـــيا وأذلوا الملوك والسلاطين ، ودخل أكثر البلاد تحت حكمهم فاستولوا على اليمـــن والحبشة ومصر والحجاز والشام ، وانتزعوا الملك من يد الملك هرقل ، ونـــــهبوا الأموال وأفنوا الأبطال وطحطحوا الرجال وأسروا الحريم والأطفال ، وقـــد حلـــوا أرضنا ، وقصدوا بلادنا ولا بد لنا من حربهم وقتالهم ، فإن ظفرنا بـــهم نصرنا ديـن المسيح ودام لنا العز الصريح ، وإن ظفروا بنا فالموت أهون علينا من تسليم البـــلاد وسبي الحريم والأولاد ، وقـــد جئتك أخطب كريمتك مارية لعـــامودا بـــن الملـــك شهريام ؛ لتكون ظهراً ويداً وعضداً وجسداً ، ونقاتل هؤلاء العربان وننصر ديـــن

(١٠) في ( فتوح الشام ) للواقدي ( ١١٧/١ ) : شهرياض .

(١١ ) في ( فتوح الشام ) للواقدي ( ١١٧/١ ) : توتا .

الصلبان . فقال آرسويس : رضيت بما ذكرت من أوله إلى آخره وأعطيت ابنتي مارية لعامودا بن الملك شهريام على شرط أن آخذ منه صداقها كذا وكذا من الفضة والذهب والخيل ، وكذا وكذا من الإبل والبقر والغنم ، وأن يرسل إليَّ عشرين رجلاً من أصحاب محمد لأذبحهم ليلة زفافها قرباناً للمسيح . فرضي البطريق وعاد إلى الملك شهريام وأعلمه بذلك ففرح فرحاً شديداً وأرسل إليه من الأموال زيادة عمَّا طلب إلا العشرين من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى يظفروا بهم ويرسلوهم إليه ، ثم إن الملك شهريام قال لولده عامودا : عليَّ الأموال وعليك العشرون رجلاً من العرب ، إذ لا يزوجك الملك آرسويس ابنته إلا على عشرين رجلاً من المسلمين ليجعلهم قرباناً للمسيح بليلة زفافها ، فخذ لك من العساكر ما شئت وتوجه تلقاء العرب وأكمن لهم ربما تظفر بعشرين رجلاً منهم .

فانتخب عامودا عشرين ألفاً من العساكر ، وأرسل معه أبوه روديسَ بن كيلول [١٢] صاحب حران وتوثا المذكور ، وقال : إن قدرتم أن تكبسوا العرب ليلاً على حين غفلة فافعلوا ولا تقصروا . وكان للمسلمين عيون عند الملك شهريام ، فعادوا وأخبروا عياض بن غنم رضي الله تعالى عنه بذلك بأن عامودا بن الملك شهريام ، وتوثا صاحب كفرتوثا ، وروديس صاحب حران قصدوكم بعشرين ألف فارس فكونوا منهم على حذر ، فدعا عياض بن غنم بخالد بن الوليد ، وعبدالله بن عتبان ، وسهيل بن عدي ، وغيرهم من السادات ، واستشار بهم في أمر المشركين ، فقال خالد : أنا أكمن بمن معي من جهة اليمين ، وليكمن عبدالله بمن معه من جهة الشمال ، وليكمن سهيل في ممر القوم ، فإذا عبر القوم علينا أطبقنا عليهم لعل الله تعالى ينصرنا بمَنِّه وكرمه . فاستصوب الكل رأي خالد بن الوليد وهيَّؤوا للجهاد ، وأكمنوا في طريق الأعداء ، فأكمن خالد بمن معه ، وأكمن عبدالله

---

(١٢) في ( فتوح الشام ) للواقدي ( ١/١١٩ ) : رودس .

ابن عتبان في جانب آخر ، وأكمن سهيل بن عدي في مكان ، ونجية بن مجيد في مكان ، وعدي بن سالم الهلالي في مكان ، وثبت عياض بن غنم في مكانه ، وكان المسلمون قد وجهوا جواسيسهم نحو العدى ، فأخذوا أخبار القوم وعادوا فصادفوا في طريقهم خالداً ومن معه من أهل الكمين ، وأخبروهم بأن المشركين قد قصدوكم وقد نزلوا بمكان يسمى المثقب وعلقوا لخيلهم ، وبينكم وبينهم مقدار خمسة فراسخ ، فقال خالد لأهل الكمين : كونوا أنتم على حذر وأنا أسير إلى المثقب بخمسمائة فارس وأطبق على الأعداء ، فإذا سمعتم التهليل والتكبير خذوا من معكم من الجيش ، وكبروا بسيفكم وأطبقوا على المشركين ، فسار خالد بالخمسمائة فارس وأنشأ يقول :

وإنَّا لقومٌ ما قالَ سيُوفُنا
من الضربِ في أعناقِ سودِ الكتائبِ
سيوفٌ حَمَلناها لقتلِ أعدائنا
وَإعزازِ دينِ اللهِ مِنْ كلِّ جانبِ
قَتَلنا بِهَا كلَّ البطارقِ جملةً
وَأخلتْ رسومُ الملك مِنْ كلِّ غالبِ
إلى أنْ مَلَكْنا الشامَ قهراً وَعُنوةً
وَصِلْنا على أعدائنا بالقواضِبِ
أنا خالدُ المِقدامُ ليثُ عشيرَتي
إذا هَمْهَمَتْ أُسْدُ الوغى في المَعاتبِ [١٣]

فلما وصل خالد إلى عسكر المشركين ، ولم يك أحد مستيقظاً سوى روديس وأصحابه وهم خمسمائة فارس فأسرعوا إلى خيولهم فركبوها واستقبلوا خالداً

(١٣) نسبة هذة الأبيات إلى خالد بن الوليد لا أصل له ، وهي منتحلة على لسانه .

وأصحابه ، ورأوا قلتهم فطمعوا فيهم وحملوا عليهم ، وحمل روديس على خالد بن الوليد فصرخ خالد على عدو الله صرخة تزلزلت منها الأرض وطعنه بعقب رمحه ، فأرداه إلى الأرض وأمر بعض أصحابه فأوثقوا يديه وسلمه إلى غلامه همام ، فلما نظر المشركون إلى أمير روديس قد أسر حملوا على المسلمين لتخليصه ، وقاتلوا قتال الموت ، فبينما هم في شدة القتال إذ طلع عليهم عدي بن سالم بألف فارس من الكمين ، فنظر عامودا والبطريق توثا إلى صاحبهم وقد أُسر ، ونظروا إلى المسلمين وقلتهم فاستقلوهم وصرخوا بأصحابِهم وقالوا : ويلكم هؤلاء ألف وخمسمائة ونحن عشرون ألفاً ، دونكم هؤلاء العرب لعل المسيح ينصرنا عليهم . فبادرت الروم إلى المسلمين من كل جانب وأحاطوا بهم وهم يزعمون أن ليس سواهم أحد إذ طلع عليهم نجية بن مجيد بألف فارس رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، فلم يلتفتوا إليهم لقلتهم أيضاً وحملوا على المسلمين ، إذ طلع عليهم عبد الله بن عتبان وسهيل بن عدي في ستة آلاف فارس ، وهللوا وكبروا وبشروا أصحابهم وأنذروا وبذلوا نفوسهم في الله ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [١٤] وارتجت الأرض بالأصوات ، وامتلأت الأودية بالأموات ، وأسروا البطريق توثا أيضاً وعامودا ، وأرضوا بذلك ربَهم المعبود وتركوا الباقين ما بين قتيل وأسير وجريح وكسير ، وانهزم بعضهم إلى الملك شهريام وأخبروه بقتال الإسلام وأخبروه بأسر ولده عامودا وبأسر روديس وتوثا وجميع من أُسر وقتل منهم ، فعظم ذلك على الملك شهريام وأيقن بانقلاب الأيام وبكى على ولده عامودا وناح وتأوّه على بطارقته وعساكره وصاح ، وكان قد أُسر من عسكره أربعة آلاف وقتل ألف وسبعمائة وستون ، ثم جمع أرباب دولته واستشار بهم في أمره فقال : أيها الملك ! إن مقامنا على رأس

(١٤) سورة البقرة من الآية ٢٤٩ .

العين أعظم المصيبة ، بيننا وبين حران والرها وسروج مسافة فلا يأتي إلينا منهم المدد ، والعرب تطمع فينا والرأي أن نرحل إلى مرج الريحان [١٥] والقلاع والحصون عن أيماننا وشمائلنا والميرة تأتينا من كل جانب ، ونقطع سائر الطرق على العرب ، فمن وجدناه منهم قتلناه ، فإن ظفرنا بهم فنعم المطلوب ، وإن غلبوا علينا انهزمنا إلى قلعة ماردين وقلعة مارية وكفرتوثا وتل موز والبراعية وتل قرع والصور ، ونتفرق على هؤلاء الأماكن ونتحصن بها من العرب ونأمن على أنفسنا وأموالنا وحرمنا فأجابهم الملك شهريام إلى ذلك ، وكان إذ ذاك نازلاً بمرج الطير بالقرب من رأس العين ، فتوجه إلى رأس العين وأوصى أهلها بالمحاصرة وترك بها عشرة آلاف من عسكره ، وأقام على المدينة صهره مرتميوس بن يوس العملقي ، وكان فارساً شجاعاً ، وتوجه شهريام بعسكره إلى مرج الريحان .

وأما ما كان من خالد بن الوليد وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ، فإنهم عادوا بالأسرى والغنائم إلى عياض بن غنم وأحضروها بين يديه ، فحمد الله تعالى على سلامة المؤمنين ونصرتهم ، وعرض الإسلام على الأسرى فمن أسلم أحسن إليه ومن أبى ضرب عنقه ، وأوثقوا عامودا وتوثا ورروديس وغيرهم من الرؤساء وسلموهم إلى العبيد ، ثم كتب عياض كتاباً إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يخبره بما فتح الله تعالى عليه من أرض الجزيرة ، وأنه قد فتح زبادلوبيا وقرقيسا ومدائن الخابور ، وما جرى له مع ابن الملك شهريام ، وأنه يريد قتال المذكور ، وسلم الكتاب إلى حبيب بن صهبان ، وأرسل معه الخمس إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وأرسل معه مائة فارس من أهل اليمن ، فسار حبيب بالأموال والفرسان حتى قدم المدينة ، وسلم الكتاب والأموال لعمر رضي الله تعالى عنه ، فحمد الله تعالى على نصرة الإسلام ، وفرح وفرح المسلمون .

---

(١٥) في ( فتوح الشام ) للواقدي ( ١/١٢٠ ) : مرج الرغبان .

ثم إن عياض بن غنم سار بعسكره وتوجه نحو مرج الريحان ، فمــر علــى رأس العين ولم يتعرض لها حتى أناخ تجاه العدو على مرج الريحان ، وكان قــد اتصلــت الأخبار بالملك آرسويس صاحب ماردين بأنه قد أُسر صهره عامودا وتوثا صــاحب كفرتوثا ورروديس صاحب حران ، وأن الملك شهريام قد انــهزم من العـــرب إلى مرج الريحان والعرب أيضاً قد نزلوا بالقرب من مرج الريحان ، فاغتم لذلك غمـــاً شديداً ، وأحضر ابنته مارية وأخبرها بالقصة ، فقالت : يا أبتــي أنــي عزمت على أمر وأرجو أن يكون فيه الخير ولكنــي أخاف أن لا ترضى بقولي وتدبيري فــائذن لي . فأذن لها أبوها في الكلام ، وقال : إن دخل رأيك عقلي أعنتك عليه . قـــالت مارية : إنــي أريد أن أتنكر وأقصد عسكر عياض بن غنم وأقول أنــــي رأيــت اليسوع في المنام ومعه الحواريون ، فشكوت إليه ما نزل بنا فقال لي : يـــا ماريــة أسلمي وادخلي في دين العرب وإنهم على الحق ، وقد أتــيتكم أسلم على يدكـــم وأملككم قلعة أبــي في طرفة عين . فإن قالوا : كيف ذلك ؟ أقول : أرسلوا معــي ما شئتم من عسكركم لأجعلهم في الصناديق وأوهم أبــي آرسويس أنهــا أمــوالي وصناديقي أرسلتها إليه خوفاً مــن العرب ، فإذا حصلت الصناديق داخل القلعـــة فقد ملكتكم القلعة ، فيغترون بذلك ويسلمونــي رجــالهم وآتـــي بـــهم إلى قلعتـــي ، فإذا حصلوا عندي قبضت عليهم بجملتهم وأرسلت إلى أمير العرب : إما أن تطلق بعلي عامودا ورفقاءه ، وإما أقتل من كان عندي من رجالك ، فإنه يطلـــق في الحال ، ولا علاج إلى تخليص عامودا ورفقائه إلا بهذه الحيلة . فاستخف أبوهـــا بعقلها وقال : إن العرب لا يفوقهم حيلة ، وما ملكوا البلاد إلا بالحيلة ، وإن فعلـت ذلك ألقيت نفسك في المهالك . فقالت : يا أبت النار ولا العار ! الموت أهون علــيَّ من أن يقال هذا من شؤم مارية ، وأنه وقع في أسر العرب قبل أن يدخل بـــها ، وأنه منذ خطبها لم تكن مباركة عليه . فقال لها : دبِّري ما شئت وأنـــا ســوف أذهب لنصرة الملك شهريام . فجمع آرسويس ما كان عنده من العسكر وتوجه نحو

مرج الريحان لنصرة الملك شهريام ، وأمر أهل ماردين والقلعة بالتحصين وأن لا يغفلوا عن بلدهم .

ثم إن مارية أحضرت من التحف الملوكية والهدايا السلطانية وتوجهت ليلاً بخمسة من غلمانها نحو عسكر المسلمين ، وكانت مارية من الشجعان تعد من أحزم الفرسان ، فلما وصلت دنيسر صادفت في طريقها حاجب أبيها الكبير ومعه أربعون أسيراً من المسلمين منهم : عبد الله بن عتبان [١٦] و عبادة بن الصامت وورقة بن جابر وحارثة بن معقب وبشر بن مرة وزهير بن مالك وغيرهم من السادات ، والسبب في أسرهم : أن عياض بن غنم رضي الله تعالى عنه كان قد بعث جيشاً إلى حران والرها وسروج مع عبد الله بن عتبان ليأتوه بالميرة والذخيرة فصادفوا في طريقهم أكساس بن نقوال صاحب الرها ، وجرس بن شمعون صاحب السن ، ومعهما خمسمائة فارس ، وكان قد أرسلهما الملك شهريام لطلب الميرة ، فلما رجعوا صادفوا في طريقهم هؤلاء الأربعين فقبضوا عليهم وأتوا بهم إلى الملك شهريام ، فأمر بضرب رقابهم ، فقال له وزيره : ليس هذا من الرأي فإن أنت قتلتهم قتل العرب ابنك عامودا وتوتا وروديس وغيرهم من الأسرى ، ولكن نتركهم لننظر ما يكون من أمرهم . فقال آرسويس : أرسلوهم إلى ابنتي مارية لتفدي بهم عامودا وأصحابه ، وإن نحن أطلقنا عامودا جعلنا هؤلاء الأربعين قرباناً للمسيح ليلة زفافها كما هو المشروط من صداقها . وأرسلهم مع حاجبه الكبير فالتقى مع مارية على دنيسر كما ذكرنا ، وأمرت الحاجب أن يذهب بهم إلى قلعتها ، وسارت حتى وصلت إلى عسكر المسلمين ، وكان تلك الليلة على حرس المسلمين سهيل بن عدي ونجبة بن مجيد يطوف بألف فارس ، فلما عاينوا شبحها أسرعوا إليها وسألوها عن أمرها ، فقالت : أنا مارية ابنة الملك آرسويس صاحب

---

(١٦) في ( فتوح الشام ) للواقدي ( ١٢١/١ ) : عبد الله بن غسان .

ماردين وأريد أميركم ، فأتوا بـــها إلى عياض بن غنم رضي الله تعالى عنه ، فـــهمت بالسجود بين يديه ، فمنعها من ذلك وقال : السجود لا يكون إلا لله تعـــالى ، وإن الله تعالى قد هدانا للإسلام ، وشرَّفنا بمحمد عليه الصلاة والســـلام ، وأزاح عـــن قلوبنا العجب والكبر ، وأمـــرنا بتحية السلام ، وإنـــمـــا يرضى بالسجود جبـــابرة الملوك ، وإن الله تعالـــى يقول : ( الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعنـــــي شيئاً منهما أدخلته النار ) [١٧]. ومارية تستمع إليه وكانت فصيحة بلسان العرب ، فقالت : أيها الأمير والله بهذا نصرتم على الروم ، واعلم أيها الأمير أنا مارية ابنـــة الملك آرسويس صاحب ماردين قدمت عليك بـــهذه الهدية القليلة وقـــد رأيـــت المسيح في المنام وأمرنـــي بالدخول في دين الإسلام ، وأنا جئتكم لأدخل في دينكـــم وأسلمكم قلعة أبـــي فأرسل معي من شئت من أصحابك واجعلهم في الصنـــاديق خفية وأرسلهم إلى قلعة أبـــي وأسلم إليكم القلعة على شـــرط أن تبقونـــي في قلعتـــي ولا تخرجوها من يدي أنا وبعلي عامودا ابن الملك شهريام الـــذي هـــو في أسركم .

فتبسم ضاحكاً من قولها وقال : إنما أتـــيت لتنصبي علينا الحيلة في تخليص بعلك عامودا بن الملك شهريام ، وعامودا ليس بعلك ، وإنما هو ولدك الذي اكتسبته مـــن الراهب قزما [١٨] وأخبرها بتمام القصة ، فتحيرت مارية من قوله وقالت من أنبـــأك هذا ؟ قال رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المنـــام فأخبرنـــي بمـــا ذكرت [١٩] .

(١٧) رواه أحمد ( ٢/٢٤٨، ٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٤٢ ) وأبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجـــه (٤١٧٤) من حديث أبي هريرة ، وهو حديث صحيح ، ولا وجود له من حديث من المذكور .

(١٨) اسمه في ( فتوح الشام ) للواقدي ( ١/١٢٢ ) : خرما .

(١٩) ليس لهذا المنام أساس من الصحة .

والقصة في ذلك : أنه كان بقرب قلعتها دير يعرف بدير الزعفران يسكن به الرهبان فمضت إليه زائرة وكانت ذات حسن وجمال وقدٍ واعتدال ، كما قيل : [٢٠]

لَــو أنَّها بَرَزَتْ لأشْمَطَ راهــبٍ
عَــبَدَ الإلــهَ ضَــرورَةً مُتَبَتِّلا
لَرَنــى لِرُؤيَتِها وَحُسْنِ حَديثِها
وَ لَــهَــمَّ مِــنْ تامُــورِهِ مُتَنَزِّلا

فنظر إليها راهب من الرهبان فوقعت في قلبه وابتلي بحبها كما هو شأن الرهبان ، كما قيل :

أعُــوذُ باللهِ مِــنْ شــرِّ الرَّهابــينِ
كما أعُــوذُ بهِ مِنْ شَــرِّ الشياطينِ
كَمْ راهبٍ يَعبُدُ الأكساسَ مُجتَهداً
وَقَــدْ تَسَربَلَ سِــربَــالَ الشّيَاطينِ

فراودها عن نفسها فأجابته وحملت منه في الحال ، فلما انقضى أيام حملها ولدت ولداً ذكراً ، فسلمته إلى دايتها سراً ثم استخرجت من خزائنها جواهر نفيسة ورصعت بها عصابته وربطتها على قماطه لينفقها عليه من يلتقطه ، ثم نظرت إليه فوجدت على خده شامة وفي أذنه زيادة ، وأضمرت ذلك بقلبها وأرسلته مع الداية ، وقالت : ألقيه في ممر الطريق في المكان الفلاني يلتقطه بعض السيارة ، فمضت ووضعته على عامود من الرخام ، وكان العامود قد وضع علامة للطريق ، وعادت .

---

(٢٠) القائل هو النابغة الذبياني من قصيدة مطلعها :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

وفيه بعض الاختلاف . أما قائل البيتين اللذين يليهما فلم نطلع عليه في المصادر المتوفرة .

وكان من قضاء الله وتقديره أن صاحب الموصل كان قد أرسل رسوله إلى الملك شهريام في حاجة فعبر على العامود ليلاً فسمع صوت الطفل وهو يبكي ، فعطف جواده نحوه وفتشه فوجد العصابة مكللة بالجواهر ، وقال : لا بد لهذا المولود من شأن ، فاحتمله حتى وصل إلى الملك شهريام ، وسلم الكتاب من صاحب الموصل ، وحدَّثه بحديث المولود ، فقال الملك : هبني هذا المولود وليس لي من يخلفني من بعدي عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ولك مني كذا وكذا على شرط أن تكتم أمره ، فوهبه للملك شهريام ، وألقى الله تعالى محبته في قلبه وسلمه إلى الدايات ، فربوه وأحسنوا تربيته ، إلى أن مشى وانتشا ، وسماه عامودا لكونه وجدوه على العامود الذي ذكرنا ، ولم يزل الغلام يجالس أبناء الكرام ويتعلم الآداب والأحكام ، واشتهر بالرماية والفروسية بين الأنام ، وصار محبوباً بين الخلص والعام ، ويزعمون أنه ابن الملك شهريام ، ومضى على ذلك شهور وأعوام ، حتى قدم جيش الإسلام ، فوسوس للملك شهريام إبليس بأن يخطب له مارية ابنة الملك آرسويس ليكونوا يداً واحدة على الإسلام ، ويدفعوا عنهم حوادث الأيام ، وكان عامودا بن مارية وهي لا تعلم به ، وقصدت عسكر المسلمين بسببه ونصبت الحيلة في تخليصه ؛ لكونه بعلها وخطيبها فأخبرها عياض بن غنم بحقيقة أمرها فبهتت وقالت : إن لي في ولدي علامات إن كان كما ذكرت أسلمت لله تعالى بخالص نية وبدلت ما أضمرته من الحيلة والنفاق بالإخلاص للواحد الخلاق ، فلما نظرت إلى خده وجدت عليها الشامة ونظرت إلى الزيادة التي في أذنه فحققت العلامة وصاحت صيحة وخرت مغشية عليها ، وتحرك دم القرابة في قلبها وقلب ولدها ، فاعتنقا ملياً وخر عليهما مغشياً ، وبكيا بكاءً شديداً ورثى لحالهما من حضر ، ثم أقبل عليهما عياض بن غنم وقال : قد وجب عليكما أن توحدا ربكما وتشكراه وتدخلا تحت أمره ورضاه ، فإنه يجزي الشاكرين ويغفر ذنب المذنبين لعل الله تعالى يمحو ما سلف منك في هؤلاء السنين ، ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ

الْمُحْسِنِينَ ﴾ [21] ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [22] واشهدا بأن لا رب سواه وأن محمداً رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ، ونشر العدل والإنصاف بين الخلق ، بين لنا الحلال والحرام ، ونسخ بشرعه سائر الأحكام ، فطوبى لمن آمن بنبوته وأقر ، وويل لمن أبى عن دينه وفرّ ، فلما سمعا كلام عياض رضي الله تعالى عنه ، قال عامودا : أنا بما ذكرت لي راض ، فلا تكن بالمغتاظ واقض ما أنت قاض ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فو الله إنكم من أهل العدل والإنصاف ، وليس في قولكم كذب ولا خلاف ، وأنا آمنت بالله واتبعت الرسول ، وما ذكرتم كله فهو عندي مقبول .

ولما رأت مارية أن ولدها قد أسلم وافقته في الحال ، وآمنت بوحدانية ذي الجلال ، ففرح عياض ومن حوله من المسلمين ، وكبّر وكبّروا أجمعين ، وقال : تقبل الله منكما هذا الثواب ، ووفقكما للصواب . ثم قالت مارية : هل يغفر الله تعالى لمثلي ؟ قال : نعم ، قال تعالى في كتابه المنزل على رسوله المرسل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [23] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [24] وإن الإسلام يهدم ما قبله [25]، ثم قال لها عياض : كيف السبيل إلى تحصيل قلعة ماردين ؟ قالت : الرأي عندي وذلك أني صادفت في طريقي بدنيسر حاجب أبي الكبير ومعه أربعون رجلاً من

(٢١) سورة الأعراف من الآية ٥٦ .

(٢٢) سورة الأنعام الآية ١٤٧ .

(٢٣) سورة الزمر آية ٥٣ .

(٢٤) سورة النساء من الآية ٤٨ .

(٢٥) رواه أحمد ( ١٧٧٧٧ و١٧٨١٣ و١٧٨٢٧ ) من حديث عمرو بن العاص . ولم يروه أحد عن الشخص الذي ذكره المؤلف .

أصحابكم وانطلق بهم إلى قلعتي ؛ ليذبحهم أبي ليلة زفافي قرباناً للمسيح ، فإذا وصلت إلى قلعتي أرسلتهم إلى قلعة أبي ، وأفك قيودهم لعل الله تعالى يسهل عليهم الأمر ؛ لأن القلعة خالية من العساكر وليس بها إلا النساء والأطفال والضعفاء ، فلما سمع عياض بن غنم بأسر أصحابه اهتم لذلك وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وكان ليس له علم بأسرهم ، فسألها عن أوصافهم ، فقالت : كذا وكذا .. فقال : هذا عبدالله بن عتبان وأصحابه فلان وفلان ، ثم إن عياض أطرق رأسه ساعة وتفكر وخاف من مكر النساء وكيدهن ، ثم قال : يا مارية ، الحمد لله الذي نجاك من الضلال وألهمك الهدى والكمال ، وإياك من الخديعة والتدليس ، أو أن يلعب بعقلك إبليس ، فقالت : أيها الأمير ، والله ما أسلمت إلا من خالص قلبي ، ولا أرجو بذلك إلا غفران ذنبي ، وإياك وسوء الظن ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [٢٦] وهذا ابني عامودا عندك رهينة حتى أسلم إليك مفاتح القلعة والمدينة ، ففرح عياض بن غنم ودعا لها بالتوفيق ، ثم ودعت ولدها وودعت الأمير وعادت إلى قلعتها ، فوجدت المسلمين قد أوثقوهم بالحبال ، فقالت للحاجب : أني أريد أن أنتقل من هذا المكان إلى قلعة أبي لأنها أحصن وأمنع من قلعتي ، وإن أبي قد توجه لنصرة الملك شهريام ، وقلعته خالية عن السكان ، وانقل أموالي وأثقالي وهؤلاء الأسرى إليها ونقيم بها حتى ننظر ما يكون من أمر العرب . فرضي الحاجب بذلك ، وانتقلوا بالأموال والأسرى إلى قلعة ماردين ، وجعلت تفكر في تخليص المسلمين ، وباتت على قلق تلك الليلة لخوفها من الحاجب أن يطلع على سرها ؛ لأنها أسلمت وكتمت إسلامها ، وكان هذا الحاجب من أهل العلم والكمال ، وقد قرأ الكتب السالفة ودرس التوراة والزبور والإنجيل ، وكان راهباً ناسكاً وله صومعة ببلدة دارا السوداء ، وشاع ذكره بالزهد

(٢٦) سورة الحجرات من الآية ١٢ .

والعبادة والعلم والفراسة ، وكان اسمه ميشا بن عبد المسيح ، ولما قدم الإسلام إلى أرض الجزيرة واستولوا على مدائن الخابور وأسروا عامودا بن شهريام ، وروديس صاحب حران ، وتوثا صاحب كفرتوثا ، ووقع رعبهم في قلوب الروم ، اجتمع أهل دارا عند ميشا [٢٧] بن عبد المسيح ، وقالوا : يا أبانا أنت من أهل العلم والفراسة والعقل والكياسة ، وهؤلاء العرب قد ملكوا البلاد وأذلوا الملوك والعباد ، وقد حلوا ديارنا وراموا دمارنا ، ولا قدرة لنا على مقاتلتهم ومحاربتهم وكيف الخلاص من يدهم ؟ وكان ميشا له علم بظهور محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن الدين عند الله الإسلام ، فكتم إيمانه وقال : يا معشر الروم إن الله تعالى أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وخولكم الربع المسكون فسكنتم مساكنه ، وخصكم من بين الملل بالسلطنة السنية ، وحفكم بالأموال والأرزاق البهية ، وملككم البلاد وأذل لكم العباد ، ونصركم في مواطن كثيرة على الأمم ، ورد عنكم سودة العرب والعجم ، ومهد لكم هذه الأرض في طولها والعرض ؛ لأنكم كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن سواه ، وتحكمون بين الناس بما أنزل الله ، وتتبعون شرعكم في كل مقام ، وتمتنعون عن أكل الحرام ، ولما غيرتم غير الله بكم ، وهلك الضعفاء والفقراء بسببكم ، وقال في الإنجيل الطاهر : من اتبع الحق ، وعود لسانه الصدق ، وعمل بأمر ربه ، ولم يبخس الناس أشياءهم ، وعمل بموجب شرعه ، ولم يتبع هواه ، بلغ من دنياه وأخراه ما يتمناه ، ومن جار وظلم كان فناؤه عاجلاً ، ولنفسه قاتلاً . فأصلحوا معشر الأصحاب ذات بينكم ، واجعلوا تقوى الله تعالى نصب عينكم ، وقاتلوا عن دينكم وحريمكم ، من قبل أن تخرجوا من دياركم ونعيمكم ، وها أنا نازل عن صومعتي وأجاهد العربان ، فلا يتخلف أحد منكم ومن الرهبان ، فلما نزل عن صومعته ، أقبل أهل دارا عليه وترامـوا على يديه ، وقبلوا قدميه ،

---

(٢٧) اسمه في ( فتوح الشام ) ( ١/١٢٢ ) : ميتا .

وسار بهم إلى كنيسة القسطنارة العظمى ، وكرز بها عليهم ثم إلى بيعة شرخيّا وبيعة الأنوار وبيعة يوحنا وبيعة الراهب وبيعة مار يونس ، ووعظهم ، وحرضهم على القتال ، ثم ذهب إلى دير الملاح عند ميدان الروم مما يلي باب عامودا ، ونادى براهب الدير فنزل وأخذه وتوجه به وبأهل دارا نحو نصيبين ، فخرج إليهم ملكها طرياطس وترجل لهم عن جواده ، وسار بهم إلى كنيسة مريم ، وكذلك كنيسة مار يعقوب ، وبيعة المعمدان ، ولم يدع بيعة ولا ديراً بنصيبين إلا دخلها وحرض الناس على قتال المسلمين ، فاجتمع إليه خلق كثير ، ثم توجه إلى معرين وما يليها ، وأخذ ما اجتمع عنده من الجيش وعاد إلى نصيبين ، ثم توجه بالكل إلى مرج الريحان ، ففرح به الملك شهريام وأكرمه غاية الإكرام ، فلما شاهد الملك أرسويس ما ظهر من ميشا من اليقين واطلع على إخلاصه وصلابته في الدين ، طلبه من الملك شهريام حتى تنقضي تلك الأيام ، فوهبه للملك أرسويس ليعينه على شرب الخندريس ، فجعله الملك أرسويس له حاجباً بعدما كان بدارا راهباً ، ولما وقع أربعون رجلاً من المسلمين في أسر هؤلاء المشركين وسلمهم الملك شهريام إلى صاحب ماردين أرسلهم مع الحاجب المذكور إلى ابنته مارية وصادفتهم مارية في طريقها بدنيسر مع ميشا الحاجب ، وانطلق بهم إلى قلعتها ، وانطلقت هي إلى المسلمين ، وأسلمت وعادت وانتقلت بهم وبالحاجب ميشا إلى قلعة أبيها ، ثم إن مارية كانت تريد خلاص الأربعين من الأسر وتسليم القلعة إليهم لكنها كانت تخاف من ميشا الحاجب أن يطلع عليها ، وميشا أيضاً يريد إطلاقهم لكنه كان يخاف من مارية ولا يعلم أحد بحال صاحبه ، وكان ميشا يذهب إلى المسلمين كل يوم ويقول لهم : لا بأس عليكم اصبروا ﴿ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابرينَ ﴾ [٢٨] وكذلك مارية ، وكان ميشا يتردد إليهم كل يوم ويشاهد حسن

---

(٢٨) سورة البقرة من آية ١٥٣ .

عبادتهم وجودة تلاوتهم ، فقال لهم يوماً : يا أمة محمد ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ أخبروني كم فرض الله تعالى عليكم من الصلاة في اليوم والليلة ؟ فأجابه عبد الله بن عتبان وقال : إن الله تعالى فرض خمس صلوات في اليوم والليلة بركوعها وسجودها ، قال الله تعالى في كتابه المبين : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (٢٩) وقال الله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (٣٠) وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (٣١) وقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ بين العبد والرب فيها إجابة الدعاء ، وقبول الأعمال ، وبركة في الرزق ، وراحة في البدن ، ومهاد في القبر وجواب نكير ومنكر ، وستر بينه وبين النار ، وثقل في الميزان ، ومفتاح للجنة ، وقد فرضها الله تعالى على من قبلنا فلم يؤدوها وقصروا فيها ، حتى فرضها الله تعالى علينا وأديناها في أوقاتها ، وإن الصلاة جامعة لجميع أنواع الطاعات ، إذ فيها جهاد لأن المصلي يجاهد بها نفسه والشيطان ، وفيها صيام لأن المصلي إذا دخل في صلاته لا يأكل ولا يشرب ، وفيها حج لأنه يتوجه فيها إلى بيت الله الحرام ، وفيها مناجات وتسبيح ﴾ (٣٢) وقال نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم (٣٣) : ﴿ جميع المفروضات افترضها عليَّ وأنا بين يديه ، وقال : يا محمد هذه الصلوات افترضتها على جميع الأنبياء ، وأمرت الأمم أن يصلوها فلم يأتوا بها فأما قوم

---

(٢٩) سورة الروم ، الآيتان ١٨ و١٨ .

(٣٠) سورة البقرة ، الآية ٢٣٨ .

(٣١) سورة النساء ، من الآية ١٠٣ .

(٣٢) لا أصل لهذا الحديث .

(٣٣) لا أصل له مطلقاً ، ومع هذا فهو مخالف للواقع حيث أن المفروضات نزلت متعاقبة وليس مرة واحدة .

موسى عليه السلام فعملوا منها قيراطاً ، وأما قوم عيسى تركوها جملة واحدة ، وقد سلمتها لأمتك وجمعت لهم فيها جميع الطاعات ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ أتاني جبريل فقال : يا محمد اصنع كما أصنع ، فتقدم وصلى الظهر وقال : هذه صلاة الظهر وهي الأولى ، ولما صار ظل كل شئ مثليه صلى صلاة أخرى وقال : هذه صلاة العصر ، ثم صلى عند مغيب الشمس وقال : هذه صلاة المغرب ، ثم صلى بعد غيبوبة الشفق وقال : هذه صلاة العشاء ، ثم صلى وقت الفجر وقال : هذه صلاة الفجر ﴾ [٣٤] وقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ فرضت الصلاة مثنى مثنى فزيدت في الحضر وقصرت في السفر ﴾ [٣٥] .

قال ميشا : وما فضيلة الصلاة ؟ قال عبد الله بن عتبان [٣٦] : قال نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم : ﴿ من حافظ على الصلوات الخمس بفرائضها وسننها وأداها بركوعها وسجودها حرم الله تعالى جسده على النار ﴾ وقال أيضاً صلى الله تعالى عليه وسلم : ﴿ إن الصلاة كمثل نهر جار بفناء أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليه دنس ؟ ﴾ قالوا : لا ، قال : ﴿ كذلك الصلوات الخمس فمن أداها لا يبقى من ذنوبه شئ ﴾ .

فلما سمع ميشا كلام عبد الله بن عتبان ، قال : والله إن دينكم حق ، وقولكم صدق ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وكتم أمره من

(٣٤) لا أصل له في كتب الحديث عمن ذكره المؤلف ، بل رواه النسائي ( ١/٢٥٥ ٢٥٦ و٢٦٣ ) من حديث جابر بن عبد الله حول إمامة جبريل للنبي ﷺ ، وبيان أوقات الصلاة .

(٣٥) رواه مسلم (٦٨٥) من حديث عائشة بلفظ : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين .. الخ ، ولا أصل له عمن ذكره عنه المؤلف .

(٣٦) عبد الله بن عتبان هذا لا ندري من هو ، ذكروا في الصحابة شخصين باسم عبد الله بن عتبان ليس هذا أحدهما ، والحديثان رويا عن غيره باختلاف في اللفظ فيهما ، وقد مر أنه جاء في ( فتوح الشام ) عبد الله بن غسان .

مارية ، ولما كان من الغد دخلت مارية على ميشا فقام لها وعظمها ، فقالت له : ما صنعت بالعرب ؟ فقال : استوثقتهم وربطت أيديهم وأرجلهم وألقيتهم في حبس مظلم وتوكلت أنا بحفظهم حتى نرى ما يكون من أمر الملك أرسويس فيهم ، قالت : أصبت ، ولكن لو حبستهم في البيعة حتى يروا حسن عبادتنا ويستمعوا قراءة الإنجيل لكان أولى ، إذ ربما يرجعون إلى ديننا ، فقال : سمعاً وطاعة ، ونقلهم من السجن إلى البيعة ، وجعلت تنظر إليهم وهم في القيود والأغلال لا يفترون عن العبادة والذكر والصلاة طرفة عين فتعجبت لتلاوتهم وعبادتهم ، ثم إن مارية أسرت إلى ميشا وقالت : أنت عالم بكل فن وقد قرأت الكتب الماضية فهل وجدت ذكر هؤلاء العرب ودينهم ونبيهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأنهم على الحق أم لا ؟ فأعرض ميشا عن قولها وقال : دعينا يا مارية من ذكر هؤلاء العرب ونبيهم ولا تسألي عن هذه الأمور ، فقالت : بحق المسيح عليك يا ميشا إلا أخبرتني عن حقيقة أمرهم ، فقال : يا مارية إنا نجد في الكتب بأنه يظهر في آخر الزمان نبي من نسل عدنان له شهرة وشأن ينسخ بدينه جميع الشرائع والأديان [37] ، يذل له العجم والعربان ، ويملك جميع البلدان ، أرسله الحنان المنان إلى كافة الإنس والجان ، يدعوهم لعبادة الرحمن ، ويعدهم بالجنان ، وينذرهم من النيران ، يخرج من تهامة ، وبين كتفيه علامة ، وقد دنى وقته وظهر ، وعلا ذكره واشتهر ، وهؤلاء أمته وقومه ، وهذا وقته وهذا يومه ، فطوبى لمن آمن به وصدق ، وويل لمن جحد به وتزندق ، واعلمي يا مارية أنه لما ولد محمد صلى الله

(٣٧) جاء في سفر التثنية من العهد القديم ١٨/١٨ : ( أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ) والكلام هنا موجه إلى موسى عليه السلام ، وعدنان الذي هو من أجداد الرسول ﷺ هو من أبناء إسماعيل أخ اسحق جد موسى ، ومحمد ﷺ جاء من وسط إخوة إسرائيل .

تعالـــى عليه وسلم خمدت نار المجوس [٣٨] وسقطت الصلبان على وجهها وغـــارت بحيرة ساوه ، وسقط أربع عشرة شرافة من أيوان كسرى ، ورأى الموبذان وهو أعلم علماء مملكته في منامه إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً ، قطعت دجلـــة وانتشـــرت في بلادها ، ففزع كسرى من ذلك وسأل عنه المعبرين والكهان فما أجابه أحد ســـوى سطيح الكاهن ، وذلك أن كسرى أرسل رجلاً يسمى عبد المسيح إلى الشام ليسـأل من سطيح عن سقوط الشرافات ورؤيا الموبذان ، فانطلق عبد المســـيح إلى الشـــام فوجد سطيح يجود بنفسه ، فأخبره سطيح بما جملته : أتى عبد المسيح ، على جمـــل يسيح ، إلى الكاهن سطيح ، وقد وافى على الضريح ، بعثه ملك ساسان ، لارتجـــاس الأيوان ، وخمود النـــيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلاً صعاباً ، تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها ، يا عبد المسيح ، إذا كثرت التـــلاوة ، وظـــهر صاحب الهراوة ، وغاضت بحيرة ساوه ، وفاض وادي سماوه ، وخمدت نار فـــارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ، ولا بابل للفرس مقاماً ، يملك منهم ملوك وملكـــات ، على عدد الشرافات ، وكلما هو آت أت ، ثم قضى سطيح مكانه ، يا مارية وقـــد قرأت في التوراة [٣٩] : جاء الله بالبيان عن جبل فاران ، وامتلأت السموات مـــن

(٣٨) الحديث الذي يروونه عـــن انطفاء نار المجوس لولادة الرسول ﷺ ، قال عنه الإمام الذهـــبي فـــي تاريخ الإسلام ( ١٤/٢ ) : حديث منكر غريب . ومعلوم أن القوم أكثروا من الأخبـــار الموضوعة فيما يتعلق بولادة الرسول ﷺ وكتب المواليد مشـــحونة بتلـــك الأخبـــار الموضوعـــة والمبالغات المرفوضة . وقصة سطيح رواها أبو نعيم في دلائل النبوة ( ٦٩ و ٧٠ ) وغيره ، وهـــي تخالف ما ذكره المؤلف هنا ، وإن كان سنده غير صحيح .

(٣٩) جاء في سفر التثنية ( ٢/٣٣ ) : ( وجاء الرب من سينا ، وأشرق لهم من ساعير ، وتـــلألأ قدماً من جبل فاران ، وجاء معه عشرة آلاف قديس ، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهـــم .. ) هكذا ورد في النسخ القديمة من ( الكتاب المقدس ) ، ثم إن القوم لما رأوا أن البشـــارة واضحـــة الدلالة على صدق نبي الإسلام الذي تلألأ من جبال فاران ( مكة ) وجاء لفتح مكة ومعه عشـــرة آلاف من الصحابة وفي يمينه نور الشريعة حرفوا على عادتـــهم الكلم عن مواضعه ، وأنت تجـــد

تسبيح أحمد وأمته ، تموج رجاله في البحر كما تسير خيله في البر ، يأتـينا بكتـاب جديد يعرف ذلك بعد خراب بيت المقدس بزات وعدد بزات أربعمائـة وعشـر سنـين ، وكان قد خرب بيت المقدس الذي بناه سليمان بن داود عليهما السلام ، وقد مضى عليه هذه السنون ، وقال في السفر الثاني من التوراة : قال الله تعـالى لإبراهيم : أنا قبلت دعاءك في إسماعيل فباركته وكثرت نسله ، وسـأثمره بمادمـاد وعدد بمادماد اثنان وتسعون كعدد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، معناه : أكـثّر إسماعيل وأثمره بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال في السـفر الثـالث مـن التوراة : جاء الله من سيناء ، وأشرف على ساعير ، واستعلى على فاران ، وأنار من فودث ، وسينا جبل الطور وهو إشارة إلـى التوراة الذي أنزل على موسى عليـه الصلاة والسلام ، وساعير جبل النصارى لأنـهم من نسل عيسى أخ يعقوب وكان ملكاً في جبل ساعير ، وهو إشارة إلى الإنجيل ، وفاران جبل مكة وهـو إشـارة إلى الفرقان ، وفودث جبل بيت المقدس وهو إشارة إلى الزبـور ، وقـال اليسـوع في الإنجيل : يأتـيكم رسول اسمه أحمد [٤٠] ، وقال في مكان آخر : يأتـيكم قضيـب الأدب ، وقال في مكان آخر : سأصعد إلى السماء وأرسل لكم الفارقليط يعلمكـم

---

في الطبعات الحديثة مـن ( الكتاب المقدس ) النص التالي : ( أقبل الرب من سيناء ، وأشـرق عليهم من سعير ، وتألق في جبل فاران ، جاء محاطاً بعشرات الألوف من الملائكـة وعـن يمينـه يومض برق عليهم ) .

(٤٠) جاء في إنجيل يوحنا ١٦/٧-٨ على لسان المسيح عليه السلام : ( لكني أقول لكم إنه خير لكـم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط [ المعزي ] . ولكن إن ذهبت أرسله إليكـم . ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة ) . وفارقليط كلمة يونانية ، وضعها مترجمو الإنجيل مـن العبرية إلى اليونانية مقابل كلمة ( بيركلوتوس ) العبرية وهـي تعني تحديـداً ( أحمد ) في العربية ، أو مقابل كلمة ( باركلي توس ) التي تعني بالعربية ( المعـين أو المعـزي أو الوكيل ) ومترجمو الإنجيل من اليونانية إلى العربية يصرون على المعنى الثانـي لا لشيء إلا ليبعدوا النص عن المعنى الحقيقي .

أمر دينكم [٤١] ، ثم قال ميشا : يا مارية وأنـــي أسلمت البارحة على يـــد هـــؤلاء المحمديين ، وكتمت أمري خيفة منك ، فلما نمت البارحة رأيت النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم وقال لي : لا تخف من مارية فإنها قد أسلمت قبلك عند عياض بـــــن غنم ، وأسلم ولدها عامودا أيضاً . فعند ذلك فرحت مارية بإسلامه وخرت ساجدة لله تعالى ، ثم رفعت رأسها وقـــالـــت : الحمد لله الذي هدانا للإسلام وجعلنا مـــن أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم إنـــهما قاما وفكّـــا قيـــود هـــؤلاء الأربعـــين وسلموهم لامة الحرب ، فقتلوا من عصى عليهم ، وأسلم خلق كثير ، وكبَّر عبد الله بن عتبان وأصحابه حتى تزلزلت لصوتِهم القلعة ، وملكوا قلعة ماردين ، وكتـــــب عبد الله وميشا ومارية كتاباً إلى عياض بن غنم وبشروه بتسليم القلعـــة ، فســـجد عياض لله تعالى على سلامة المؤمنـــين ، وأثنى على مارية وميشا خـــيراً ، وأرســـل عامودا إلى أمه مارية ، وقال : اللهم ثبتهم على دينك وحب نبيك صلى الله تعـــالى عليه وسلم ، فاتصلت الأخبار إلى الملك شهريام والملك أرسويس بأن مارية وميشـــا قد أسلما وتبعهم خلق كثير وفكوا قيود الأسرى الذين كانوا عندهم ، وثاروا علـــى ماردين ، فصعب ذلك على الملوك وأيقنوا بزوال ملكـــــهم ، ووقـــع الرعـــب في قلوبـــهم .

وأما الملك أرسويس فإنه كتم أمره إلى الليل وانسل من عسكر الملك شـــــهريام وتوجه بعسكره نحو حران فوصل إليها في الليلة الثانية ، وقصد باب المدينة وصـــاح بالحراس ، فقالوا : من أنتم ؟ قال قائل : افتحوا الباب فقد جاء بطريقكم روديـــس صاحب حران ، وقد انهزم من العرب ، فلما سمع الحراس قوله فتحوا له البـــاب ، ودخل بعسكره وملك حران بهذه الحيلة ، وكان لروديس ولد شـــجاع يســـمى : أرجوك ، وكان أبوه قد قبض عليه لخوفه منه ، وحبسه في قلعة العمق ، فاتصل بـــه

(٤١) انظر إنجيل يوحنا ١٤/١٥-١٧ .

الخبر بأن أباك روديس وقع في أسر العرب والعرب قد ملكوا قلعة ماردين وجـــاء أرسويس صاحب ماردين ليلاً إلى حران واحتوى عليها بالحيلة ، فصعب ذلك علـى أرجوك وتوجه نحو حران بثلاثة آلاف فارس ، فخرج أرسويس إلى لقائــه ووقـع بينهما حرب عظيم ، فوقعت الهزيمة على عسكر أرجوك وأسروا أرجوك المذكـور ، وعاد أرسويس إلى حران منصوراً ، واتصلت أخبار حران إلى عياض بن غنم رضـي الله تعالى عنه ، ثم إن عياضاً أحضر روديس بن كيلول صاحب حـــران وأخـبروه باستـــيلاء أرسويس بن جارش على حران وقد أسر ولده أرجوك ، ثم قال له : هـل لك أن تدخل في دين الإسلام وأنـا أملكك حـــران ؟ فقال روديس : أيها الأمير ، دعنـــي في هذا الآن ولي بذلك مآرب كثيرة ولكن إن فكيتنـــي من الأسر سـلمت إليك حران وما يليها من البلدان إما بالإسلام وإما بأداء الجزية ، ولكن على شــرط أن تسلم إليَّ حكومة حران والسويدا ونصيبين ، فأجابه عياض إلى ذلك وأمر عبـد الله يوقنا صاحب حلب أن يستحلفه بأيمان الروم والنصارى فحلفه وخلّى ســبيله ، وأمره أن يتجهز وجهز معه يوقنا في ألف فارس من المسلمين وتوجهوا نحو حـــران فبينما هم سائرين إذ صادفوا في طريقهم الثلاثة آلاف فارس وهم عسكر أرجـــوك وكان قد اجتمعوا بجملتهم ولم يتفرقوا ، وكان أرسويس قد أرسل إليـــهم رســولاً يستدعيهم لطاعته ووعدهم بالأموال ويكونون تحت حكمه ليفتح بهم الرها وينتزعـ من يد كيلول بن لاوي فأجابوه إلى ذلك في الظاهر وأضمروا عليه الحيلة في البـلطن لاستخلاص أميرهم أرجوك من أسره ، وطلبوا منه أن يخرج إليهم إلى ديـــر قزمـا ليشترطوا عليه بعض الشروط ويوافقوه على ما يريد ، فخرج أرسويس نحو الديــر وأرسل عسكر أرجوك إلى كيلول بن لاوي رسولاً وأخبروه بأن أرسويس قد خـوج إلى دير قزما ليتحالف معنا على أن نوافقه وننتزع الرها من يدك وأنت رجل منـــا وأرسويس رجل رومي من أهل الفساد فأكمن برجالك عند دير قزما لنقبض علـى أرسويس ولنمحي ذكره من هذه البلاد ، فعند ذلك خرج كيلول صاحب الرهـا في

لخمسمائة فارس وأكمن عند دير قزما ، وتوجه أيضاً عسكر أرجوك نحو الدير ، فصادفوا في طريقهم روديس صاحب حرا ويوقنا - كما ذكرنا - فهنئوا روديس بالسلامة وترجلوا عن خيلهم وسألهم عن أمرهم ، فأخبروه بأسر ولده أرجوك وأنهم قد أضمروا على أرسويس الحيلة وأن كيلول قد أكمن عند دير قزما ليقبضوا على أرسويس ، ففرح روديس ويوقنا بذلك وقالوا غنيمة ساقها الله تعالى إلينا ، فبينما هم كذلك وإذا بعمرو بن معدي كرب الزبيدي قد أقبل في أربعمائة فارس من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى علية وسلم وقد أسروا في طريقهم أرسويس صاحب ماردين ، وكان السبب في قدومهم أن عياض بن غنم لما بعث يوقنا مع روديس ساء ظنه بروديس فأشار عليه خالد بن الوليد أن يمده بجيش فأرسل إليه عمرو بن معدي كرب في أربعمائة فارس ، فبينما عمرو وأصحابه سائرين إذ صادفوا في طريقهم أرسويس بن جارش بمائة من غلمانه فقبضوا عليهم كما ذكرنا ، ففرح يوقنا بقدومهم وأسر أرسويس وسار يوقنا بأصحابه نحو دير قزما وكبس على كمين كيلول وقبض عليه وعلى من كان معه من أهل الرها ، ثم إن يوقنا أمر أصحابه بأن يلبسوا ثياب أصحاب كيلول ولبس هو ثياب كيلول وتعمم بعمامته وتزيا بزيه وتوجهوا نحو بلدة الرها فوجد الباب مفتوحاً ، وأهل الرها يزعمون أنه صاحبهم كيلول ، فلما دخل كبَّر يوقنا وكبَّر أصحابه واحتوى على مدينة الرها وخزائن كيلول .

وأما عمرو بن معدي كرب فإنه توجه بأرسويس بن جارش نحو حران لنصرة روديس ، فلما وصل روديس إلى حران خرج لاستقباله الخاص والعام ، وصعقوا بين يديه وشكروا على سلامته ، فترك عمرو بن معدي كرب خارج البلد ودخل هو إلى حران ، ثم توجه إلى كنيسة العظمى واجتمع إليه الخلق ، فقام فيهم خطيباً وقال : يا معشر صحبي أني كنت أميركم منذ كذا من السنين وكنت أرحم لكم من الأب الشفيق على البنات والبنين ، وما ظلمت أحداً بدرهم ولا دينلو ،

ولا احتكرت أرزاقكم ولا ادخرت الأسعار ، وأني قد وقعت في أسر هؤلاء العرب منذ أيام ، وسكنت بينهم فوجدهم من قوم كرام ، وتأملتهم فلم أطلع منهم على عيب ، ولم أجد في دينهم ودنياهم من شك ولا ريب ، وأني وإن كنت من البطارقة والحكام ، لكنني تتبعت الكتب وعرفت سائر الأحكام ، ويقيني أنهم على الحق والصواب ، وتحقيقي أنهم ليسوا من أهل الارتياب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأنتم لكم الخيار في الإسلام ، أو تؤدوا الجزية في كل عام ، فلما رأى أهل حران أن صاحبهم قد أسلم ، قالوا : أنت أخبر منا وأعلم ، ونحن أيضاً نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . ثم إن روديس دعا بعمرو بن معدي كرب إلى حران وأنزله بدار الإمارة ، وحمد الله تعالى على إسلامه ، وجعلوا الكنائس مساجداً ، وكان كل منهم شاكراً لله وحامداً ، وأطاع أهل سروج والسن والكساس والعمق وغيرها .

ثم إن الملك شهريام لما بلغه هذه الأخبار أيقن بالهلاك وجمع أرباب دولته وحشمته ، واستشار بهم في أمر العرب فاتفق رأيهم على أن يستمدوا بملوك تلك البلاد ، فكتب إلى مريم الدارية صاحبة دياربكر ، وإلى أرياوش صاحب حسنكيف وسعرت ، وإلى سرور صاحب أخلاط ، وإلى سلنطر ملك السناسنة ، وإلى ملك الطاف صاحب الموصل ، وإلى أمراء جبال الهكارية وغيرهم ، وطلب منهم المدد ، فاجتمع إليه من العساكر ما لا يحصى ، ثم إن عياض بن غنم جمع ما كان تفرق من المسلمين في تلك البلاد ، واستشار بخالد بن الوليد في أمر المشركين ، وقال : هذا شهريام هو رئيس هذه البقعة ، فإن نصرنا الله تعالى عليه لم يبق بلد في أمر الجزيرة إلا ملكناه ، وقد فتح الله تعالى لنا مدائن الخابور وماردين والرها وحران وما حولها ، وأطعنا بلاد كثيرة كدياربكر وما حولها وحسنكيفا والموصل ونحوها ، وهذا شهريام قد اجتمع إليه من العساكر الوافرة من جميع النواحي والأطراف ، ولا أدري كيف نقابله بالحرب وقد قلت علينا الميرة في هذه البلاد وطال بنا المقام ، فقال

خالد بن الوليد : أنـــا أذهب إلى قتالهم أولاً بخمسة آلاف فارس ، فإن نصرنـــا الله تعالى عليهم فهو المراد وإلا فنستعين عليهم بالله تعالى الذي نصرنا في مواطن كثيرة . فقال عياض : افعل ما بدا لك وبالله التوفيق ، قال : ثم إن خالداً انتخب لـــه مـــن أصحاب رسولِ الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمسة آلاف فارس وســــار نحـــو الكفار وأنشد يقول : [٤٢]

وَإنَّا لَـقَــومٌ لا نَرى الموتَ نـقــمَـةً
وَيَفــزَعُ مِنَّا فِي الـحُــروبِ أُسُودُها
لَنَا الفَخرُ فِــي كُـلِّ المواطِــنِ والعُــلا
بأَحْمَدِنـــا الـهــادي فَــذاكَ سَعيدُها
مَـلَـكـنــا بِلادَ الشَّامِ ثُمَّ لِـمِصْرِها
وَقَــد هَلَكَتْ يــومَ الحروبِ عَديدُهــا
وَســوفَ نَسوقُ الخَيلَ جــرداً سَوابقاً
إلــى شَهريامَ الـكَلبِ ذَاك عنـــيدُها
مَـلَـكْـنــا بلادَ الكُفرِ قَهراً بسَيفِنَا
كـمَــردينَ والـخــابورِ كُلاً نُبيدُها
وَنَمْلِكُ رأسَ العَيـــنِ إنْ شـــاءَ رَبُّنَا
وَكُــلاً إلــى دِيــنِ النَّبي نُـعــيدُها

ووقع الحرب بين خالد وعسكر المشركين فوقعت الهزيمة على المسلمين ، وقتـــل ستون رجلاً منهم ، وقبضوا على خالد بن الوليد [٤٣] وجماعة من أصحاب رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأحضروهم بـــين يـــدي شــهريام ، فـــأوثقوهم بالسلاسل والأغلال وأرسلهم إلــى رأس العين ، فلما عاد المنهزمون إلى عياض بـــن

(٤٢) نسبة هذه الأبيات أيضاً إلى خالد لا أصل له ، وهي منتحلة على لسانه .

(٤٣) لم تشر المصادر التاريخية الموثوقة إلى وقوع خالد في الأسر .

غنم وأخبروه بأسر خالد وجماعة من أصحابه تأسف وبكى ودعـا لـه بالسـلامة والخلاص ، فقام عياض وقال : لا أريد الحياة من بعد خالد ، ونادى بالمسلمين : يـا خيل الله اركبي ، وبالجنة أبشري ، وسار حتى التقى الجمعان بمـرج الريحـان ، ولا زالت الليوث تتباطح ، والكباش تتناطح ، والرماح تمـرق ، والسـيوف تـبرق ، والخيول تصهل ، والدماء تـهطل ، والأصوات تصعق ، والنفوس تزهق ، والغبـار يعلو ، والممات يحلو ، والرجال تقتل ، والأبطال تختل ، حتى انهزم جيش الكفـار ، وولوا الأدبار ، وانـهزم الملك شهريام نحو الجبل ، فتبعه عبد الله بـن عمـر بـن الخطاب رضي الله تعالى عنهما [٤٤] ، ولم يزل يتبعه حتى سقط اللعين عـن جـواده فعلاه عبد الله بضربة وعجل الله تعالى بروحه إلى النار وبئس القرار ، ثم عاد عسكر الأصحاب لمحاصرة رأس العين فلما قربوا منها سمعوا بـها صوت تـهليل وتكبير ، فأسرعوا إلى الباب وإذا بخالد بن الوليد وأصحابه قد تخلص من القيود وثار علـى أهل البلد ، وذلك أن الموكلين على حفظهم لمـا شـاهدوا حسـن عبادتـهم وتلاوتـهم أسلموا وأطلقوهم من الحبس ، وأدركهم عياض بن غنم ، واسـتولوا على رأس العين أيضاً وصفت لهم تلك البلاد .

رِجالٌ مِنَ الأحبابِ تَاهَتْ نُفُوسُهُمْ
إلى مَنْزِلِ الأفضالِ واستَعْمَلوا الكَدا
وَقَامُوا بِجُهْدٍ فِـي الـجِهادِ لربِّهم
يُنَادونَه خَوفـاً وَيَدعـونَه قَـصْدا
أولئكَ قَـومٌ فـي العِبادةِ أَخْلَصوا
فَـهامُوا بِهِ شَوقَـاً وَتَاهُوا بِهِ وَجْدَا [٤٥]

(٤٤) تتفق المصادر التي تترجم للصحابي الجليل عبدا الله بن عمر على أنه لم يكن حاضراً في هـذه المعارك .

(٤٥) لم نطلع على قائل هذه الأبيات .

ثم إن عياض بن غنم أحضر أرسويس بن جارش صاحب ماردين ، والبطريق توثا صاحب كفرتوثا ، وغيرهم من البطارقة المأسورين وعرض عليهم الإسـلام فـأبوا فضرب أعناقهم ، ثم فوَّض حران والسويدا ونصيبين لروديس ، وفـوض مـاردين لمارية ابنة الملك أرسويس وولدها عامودا ، وأكرم ميشا غاية الإكرام وأوصى به إلى مارية ، ثم توجه إلى دياربكر وانتزعها من يد مارية الدارية وولى عليها صعصعة بـن مازنـي المدنـي ، والله تعالى أعلم وأحكم .

ثم إن ماردين لما دخلت تحت قبضة الإسلام ، وحكم بـها عامودا بن ماريـة ، وامتدت عمارتـها قريباً من مائة سنة ، ثم آلت إلى الخراب ، وصاح على أرجائـها البوم والغراب .

وبلدة ليس بـها أنـيس إلا اليعافيـر وإلا العيس

وخلت نحو ثلاثمائة سنة ..

## [ ماردين تحت حكم الدولة المروانية ]

.. حتى استولى على دياربكر رجل من الأكراد يقال له : أحمد بن مروان [٤٦] وذلك في أيام القادر بالله العباسي سنة ٤٠١ ولقبه القادر بنصير الدولة [٤٧] ، وكان مدة حكمه بدياربكر ٢٥ سنة [٤٨] ، وكان من أهل الشجاعة والسماحة والدولة والعظمة ، وكان بين نصير الدولة المذكور وطغرل بك السلجوقي محبة ومودة وافرة ، وأهدى له نصير الدولة من الهدايا الفاخرة ، فمنها أنه أهدى له ياقوتة حمراء عجز المقومون عن قيمتها .

وكان لنصير الدولة من الوزراء فخر الدولة بن جهير [٤٩]، كان أولاً من وزراء خلفاء العباسية ، وأبو القاسم المغربي ، وكان لنصير الدولة أحمد ثلاثمائة

---

(٤٦) أبو نصر أحمد بن مروان ( ت ٤٥٣ هـ ١٠٦١ م ) وهو ابن أخت باد بن دوستك الحميدي مؤسس دولة بني مروان ( حكم من سنة ٣٧٢ حتى مقتله سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠ م ) ، ذاع صيته واشتهر في عهد الخليفة العباسي القادر بالله ، عاش ثمانين عاماً ، وحكم اثنتين وخمسين سنة ، كان على علاقة طيبة مع السلطان السلجوقي طغرل بك ، وكان يضاهي عظماء الملوك في الترف ، قصده العلماء والشعراء فأكرمهم وأنعم عليهم ، وهو أول من قام بأعباء الحكم من الكرد مستقلاً في دياربكر والجزيرة . انظر ( البداية والنهاية ) لإبن كثير ٨٧/١٢ ، و ( شرفنامه للبدليسي ١٩/١ ) و ( مدينة ماردين للدكتور حسن شميساني ص ١١٣ - ٢٣ ) .

(٤٧) تذكر المصادر أنه لقب بنصر الدولة ، وانظر ( البداية والنهاية ) ٨٧/١٢ .

(٤٨) كذا في الأصل ولعله تصحيف إذ أن نصر الدولة استقل بالحكم ٥٢ سنة كما يذكر المؤرخون ، هذا وقد حكم قبل نصر الدولة ثلاثة آخرون هم : باد بن دوستك ( حكم ٣٧٢ ٣٨٠ هـ ) وحسن بن مروان ( حكم ٣٨٠ ٣٨٧ هـ ) وسعيد بن مروان ( حكم ٣٨٧ ٤٠١ هـ ) وانظر ( الدولة الدوستكية ) لعبد الرقيب يوسف ١٣/٢ .

(٤٩) يرى البدليسي ( ١٩/١ ) أنه وزر لنصير الدولة أولاً ثم أصبح وزيراً للخلافة العباسية .

وستة وستون مملوكة كأنهن الحور العين ، وكان يبيت كل ليلة مع واحدة منهن ، وكان من أهل العدل والإنصاف .

ثم إن المذكور شرع بتعمير بلدة ماردين وعمر ما حولها من القرى ، ونقل إليها الرجال والأموال وبنى أسواقها ومساجدها ، وكانت عمارتها سنة ٤٤٠ ، ولم يزل يرسل إليها نوابه حتى توفي سنة ٤٥٣ ، ومن بعده خلف ولدين ، أحدهما : سعيد ، والآخر : نصر ، وقد وقع بينهما عداوة وحروب ، أما نصر فإنه حكم في مكان والده بدياربكر وذلك بمساعدة الوزير فخر الدولة ابن جهير ، وأما سعيد فإنه أقام بميافارقين زماناً ثم انتقل إلى ماردين ومكث بها حتى توفي أخوه نصر سنة ٤٦٢ بذي الحجة (٥٠) ، وانتقل سعيد إلى دياربكر وجلس مكان والده ونصب من جهته نائباً على ماردين ، وكان من أهل الشفقة والإنصاف توفي سنة ٤٦٥ .

ومن بعده ابن أخيه منصور بن نصر بن نصير الدولة أحمد ، فحكم سنة ، ثم وقع بينه وبين الوزير فخر الدولة بن جهير عداوة ، وجرى بينهما محاربات كثيرة ، وانكسر في بعض محارباته ابن جهير ، وانهزم إلى جكرمش صاحب الموصل لمحاربة منصور بن نصر ، والتقيا على نصيبين ، فانكسر جيش منصور وقبضوا عليه وأرسله جكرمش مقيداً إلى الجزيرة فتوفي في الحبس سنة ٤٦٦ (٥١) ، وانقرضت به دولتهم وانتقلت إلى جكرمش صاحب الموصل ، ولم يزل يحكم بدياربكر وماردين ملوك شتى حتى ظهرت الدولة الأرتقية سنة ٤٦٩ ، وهؤلاء الملوك كانوا من الأكراد ، وكانت ماردين تحت حكم الأكراد ٢٩ سنة .

---

(٥٠) ويرى البدليسي ( ٢٠/١ ) وعبد الرقيب يوسف ( ١٣/٢ ) أنه توفي سنة ٤٧٢ هـ .

(٥١) يرى البدليسي ( ٢٠/١ ) أنه توفي في محرم سنة ٤٨٩ هـ ويذكر الأستاذ عبد الرقيب يوسف ( ١٣/٢ ) أن وفاته كانت في ٤٧٨ هـ .

# [ فصل
## في ذكر أصل الأكراد وبلادهم ]

واعلم أنهم قد اختلفوا في عنصر الأكراد ونسبهم ومآل أصلهم ومنقلبهم ، أجودها ما سنذكره ونوضحه ، وأشهرها ما سنكتبه ونفصحه ، قيل : إنه لما قتل جمشيد السلطان ، وجلس مكانه ضحاك مازن وكان ساحراً من سحرة عصره وجباراً من جبابرة دهره ، وكان قد ابتلاه الله تعالى بعلة في ذلك الزمان وتعرف لدى الأطباء بعلة السرطان ، إذ ظهر على كلا منكبيه آفتان كأنهما الحيتان العظيمتان يؤذيانه ليلاً ونهاراً ، لم يجد منهما قراراً ، فعجز كافة الأطباء من علاجه كما عجز عن إصلاح مزاجه ، فتمثل له إبليس التلبيس في صورة طبيب لبيب ، وقال : علاجك عندي لا عند غيري ، وسترى من نصحي وتقتبس من خيري ، وذلك أن تقتل كل يوم آدميين وتلطخ بمخهما على هاتين الحيتين فيخف عن منكبيك الورم ، ويسكن عنك الوصب والألم ، فعليك بالتجريب ولا تقسني لكل طبيب ، ففعل الضحاك ما أشار به اللعين ، فقتل اثنين من المحبوسين ، ودهن مخهما بذلك السرطان الظاهر فسكن عنه الألم بقدرة القادر ، فلم يزل ذلك دأبه كل يوم على الدوام حتى قتل ألوفاً من الأنام ، وكان الموكل على قتل الآدميين من أهل المرحمة ، ولم يرض نتلك المظلمة ، يقتل أحدهما ويطلق الثاني قبل أن يراه أحد ، ويشترط عليه أن لا يقيم في ذلك البلد ، ثم يمزج مخ الآدمي بمخ رأس من الغنم ويذهب به إلى الضحاك ليداوي به من الألم ، ولم يزل يقتل أعواماً وشهوراً ، حتى

أطلق ألوفاً إناثاً وذكوراً ، وكان هؤلاء الذين يطلقهم يهربون إلى قلل الجبال ، واجتمع منهم ألوف من النساء والرجال ، فصارت قلوب هؤلاء الهاربين مع بعضهم مؤتلفة إلا أن لغاتهم كانت مختلفة ، فتناكحوا بين هاتيك الأطواد ، فجاء من نسلهم هؤلاء الأكراد ، فلقبوا بالأكراد لتوحشهم ورقاعتهم ، وقيل : لتهورهم وشجاعتهم ، ثم جمعوا الأموال والمواشي وتفرقوا في هذه الحواشي .

ونقل عن بعض الحكماء : الأكراد طائفة من الجن كشف الله تعالى عنهم الغطاء .[٥٢]

وقيل : إن عفريتاً من الجان تزوج بإنسية في زمن النبي سليمان عليه الصلاة والسلام ، فجاء من صلبه هؤلاء الأكراد .

وقيل : إن أصلهم من أعراب العرب سكنوا الجبال والخرب[٥٣] .

والأكراد ينقسمون إلى أربعة أقسام : فرقة يقال لهم ( الكرمانج ) ، وهم أحسنهم ، وفرقة يقال لهم ( اللر ) ، وفرقة يقال لهم ( كلهور ) ، وفرقة يقال لهم ( كوران ) ، وبين الكل تفاوت في الآداب والعادات واللغات ، وهم قوم بهم تهور وشجاعة ممزوجة بتكبر ورقاعة ، فأما شجاعتهم لقلة إدراكهم ؛ لأن من تفكر في العواقب لم يشجع ، ولهذا لم يطمع السلاطين في قتالهم وحربهم بل قنعوا منهم بمجرد الإطاعة لكونهم من أهل الشجاعة ، وقد ظهر منهم شجعان وأبطال كرستم زال ويقال له : رستم الكردي ، وبهرام چوپين ، ومنهم : جهمكين ميلاد[٥٤] ، ومنهم : العاشق فرهاد صاحب شيرين وهو من أكراد الكلهور ،

---

(٥٢) روى ذلك المسعودي ( ت ٣٤٦ هـ ) في كتابه مروج الذهب ( ٢ /٩٩ ) ط ٢ ، مؤسسة دار الهجرة ، قم إيران ١٩٨٩ م ، وهي رواهية واهية كما لا يخفى .

(٥٣) عن هذه الروايات الواهية راجع ( شرفنامه ) للبدليسي ( ١/ ١٠-١٢ ) .

(٥٤) في ( شرفنامه ) ١/ ١٥ : كركين ميلاد .

ومـــنهم : خير الدين باشا وكان مدرساً ببورسا ، ثم تقلد الوزارة العظمى للسلطان أورخان ، ومنهم : باطرونه تقلد الصدارة العظمى في أيام السلطان محمود .

وقد ظهر منهم علماء وفقهاء ، ولهم تصانيف كثيرة لكنها ليست بمشـــــهورة ، وليس لهم ذوق تام باكتساب الفضائل الرسمية والعرفية كالشعر البليـــغ والإنشـــاء الفصيح وحسن الخط والعلوم العربية والعلوم الأدبية ونحو ذلك مما يتوصل بــــه إلى المناصب العلية والتقرب إلى السلاطين (٥٥) . وغالبهم من أهل الكرم والســـخاء ، يكرمون الضيوف والغرباء ، ثم إنهم وإن كانوا من أهل الفضاعة والشناعة ، لكنـــهم مـــن أهل الرياضة والقناعة ، يقنع بخبز الشعير والجلوس على الحصير ، ولا يـــداوم على أكل اللحوم ، ويستوي دونه النسيم والسموم ، يلبس أدنى الثياب ، ويقعـــد وينام فوق التراب ، وكأنه فيهم قال أولوا الألباب : هنـــيئاً لمن كان عيشه كعيش الكلاب .

ومن عجائبهم أنــــهم لا يزالون على الاختـــلاف ، ولا تراهـــم علـــى الـــود والائتلاف ، وكل منهم يدعي لنفسه الانفراد ، ويزعم أنه زعيم الأكراد ، والسر في ذلك ما روي أنه لما ظهرت الدولة المحمدية وشاع ذكرها في سائر البريـــة ، ودعـــا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الخلائق للإيمان ، وبلغت رســـــالته القـــاصي والدان ، فاستمع بصيته ( أغوزخان ) وهو من عظماء ملوك التركستان ، فأرســـــل إلى النبي المكرم صلى الله تعالى عليه وسلم كتاباً وهـــدية صحبة رجـــــل مـــــن أعيان الأكراد ( بغدوز ) ، حتى وصل ذلك الرسول إلى مدينة الرســـول ، وســـلم الهدية والكتاب ولزم الخشوع والآداب ، فاطلع النبي صلى الله تعالى عليه وســـــلم على ما فيه من إخلاص النـــية والإيمان ، فدعا صلـــــى الله تعـــالى عليـــه وســـلم لآغوزخان ، وكان بغدوز كريه المنظر قبيح المخبر ، فاستبشع النبي صلى الله تعـــالى

(٥٥) ظهر في الكرد أدباء وعلماء كثيرون ومصنفاتـــهم مشهورة ومتداولة بين النـــاس ، ومـــا أسداه الكرد إلى المكتبة الإسلامية العربية لا يستغنى عنه ، وما ذكره المؤلف خطأ واضح .

عليه وسلم صورته واستعظم جثته وسأله عن أصله وقبيلته ، فقال بغدوز : أنا من الأكراد ، فقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ اللهم لا تجعلهم على الاتفاق لأن اتفاقهم سبب لخراب العالم ﴾ (٥٦) .

وأكثر الأكراد من أهل السنة والجماعة ، على مذهب محمد بن إدريس الشافعي ، ومنهم طائفة تعرف باليزيدية ظهروا في الشام في زمن بني أمية كالخالدية ، والنبلية ، والمحمودية ، والطاسنية ، واليسپانية (٥٧) ، والكشاغية ، ويعرفون الآن بالموسسان ، والشرقيان ، والسنجارية ونحوهم ، ثم عادوا إلى بلادهم ، وأظهروا مذهبهم ويعدون أنفسهم من مردة الشيخ عدي بن مسافر وهو من سلسلة الخلفاء المروانية (٥٨) .

---

(٥٦) هذا افتراء واضح على التاريخ ، وكذب بين على رسول الله ﷺ ، لم يرد في كتب الحديث ، والظاهر أن مختلقه هو عدو للشعب الكردي ، ويبدو أن المؤلف قد استقى أغلب معلومات هذا الفصل من كتاب ( شرفنامه ) مع شيء من التصرف ، ولم نجد بين الصحابة من اسمه بغدوز .

(٥٧) في ( شرفنامه ) ١/١٣ : البسيانية .

(٥٨) هو حجة الإسلام وتاج العارفين أبو الفضل عدي بن مسافر الأموي الهكاري ، من كبار مشايخ أهل السنة ، ولد في موضع يقال له ( شوف الأكراد ) بضيعة تسمى ( بيت فار ) في البقاع بالشام ، ساح في البلاد طلباً للعلم وقصد الحج وجاور المدينة أربع سنوات ، ثم دخل بغداد واجتمع بطائفة من العلماء والزهاد في مقدمتهم العلامة الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وقصد أخيراً جبال هكار ( وتعرف اليوم ببهدينان ) واستقر في وادي ( لالش ) فاجتمع عليه أهل المنطقة وأحسنوا الاعتقاد فيه حتى نسبوا إليه فسموا بالعدويين ، توفي سنة ٥٥٥ هـ وقيل بل سنة ٥٧٧ هـ ودفن بزاويته في ( لالش ) ، ومن آثاره رسالة في ( اعتقاد أهل السنة والجماعة ) وقد صدر بتحقيقنا عن مكتبة الغرباء الأثرية بالمدينة المنورة سنة ١٤٩ هـ ١٩٩٨ م .

فمن جملة ما زعموه [٥٩] : أنـــهم ينكرون الكتب السماوية والشرائع الإلهيـة ، ويزعمون أنــها مسطورة لنظام العالم ، ولهذا يبغضون علماء الظاهر وكتبهم ، ولهم كتاب يسمى بالجُلَوة ، ويزعمون أنه من مؤلفات الشيخ عدي وهو بريئ منه ، وقـد حلل لهم فيه الخمر والزنا إذا كان عـن تراض ، وحرم عليهم الصوم والصـلاة ، وأن الواجب طهارة القلب لا غير ، ويحرمون الحج ، ولهـم شـيوخ يسمونـهم بالفقراء ، ويقولون : إنـهم من نسل بركات بن مسافر وهو أخو الشيخ عـدي ، ويمكنون شيوخهم مـن أزواجهم لأن يرزقهم الأولاد ويستحلون ذلك ويفتخـرون به ، ويصفون الله تعالى بالأكل والشرب والنوم وغيرها تعالى الله عـن ذلـك . ومذهبهم يشابه مذهب الحلولية ، ويحبون النصارى ويستحسنون بعض عقـائدهم ، ويظهرون الإسلام ويتعلقون بالشهادتـين وذلك جائز عندهم لدفع الشر والفتنـة ، ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [٦٠] .

ويفضلون الشيخ عدي على سائر الأنبياء والعياذ بالله تعالى ، ولهـم حكايـات شنـيعة تشمل على التهاون والاستخفاف بالله وبرسوله من حيث تذللهما بين يدي العدي واستثقاله من ترددهما إليه ، إلى غير ذلك من القصص الباردة والاعتقـادات الفاسدة تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، ويفضلون إبليس على

(٥٩) بعض ما نسبه المؤلف إلى اليزيدية لا أصل له ، ولعله استقى معلوماته من الفتوى المنسـوبة إلى عبد الله الربتكي تارة وإلى حسن الشيفكي تارة أخرى ، وللمزيد حول هذه الفتوى راجـع مقالنا المنشور في العدد (٦٠) من مجلة ( رؤشنبيرى نوىَ ) حول صحة نسبة هذه الفتوى ، أمـا كتاب ( الجلوة ) و ( مصحف رش ) فلا أصل لهما ، وقد كتب عز الدين باقسـري ـ وهـو يزيدي ـ مقالاً في العدد (١٢) من مجلة ( لالش ) ذكر فيه أن الكتابـين منتحلان وذكر لذلـك خمسة أسباب فليراجع .

(٦٠) سورة البقرة آية ١٤ .

سائر الملائكة ، ومن ذكره بسوء فهو كافر عندهم ، ويفضلون يزيد بن معاوية على سائر الأنبياء ، ويبغضون أهل العلم ، ويحبون المشايخ والأولياء ومن ينسب إليهم من الصوفية وأهل الطريق ، ويسجدون لكل مكان شريف ولكل عبد شريف ، وأنه لا سجود إلا لله الواحد القهار .

واليزيدية على أربع فرق : منهم من يفضل الشيخ عدي على يزيد ، ومنهم بالعكس ، ومنهم من يزعم أن الشيخ عدي هو الله تعالى ، ومنهم من يدعي أنه نبي وأنه أفضل من سائر الأنبياء ، ومنهم من يزعم أنه بمنزلة الوزير عنده لا يصنع الله تعالى شيئاً إلا بمشورته ، ويسمونه الشيخ هادي ، ويعتقدون أن لالش زيارته بمنزلة الكعبة ، ولالش قرية بقرب الموصل عن شمال دجلة ، وفيها قبر الشيخ عدي ، وفي لالش عين تسمى بعين البيض وهي عندهم بمنزلة ماء زمزم ، ولهم عالم في لالش يخرج إلى من يحب في كل سنة ومعه شئ من الذهب على صورة العجل ، ويجمع له الأموال وكل من لم يكرمه ويسجد له فهو كافر عندهم .

والحاصل أنهم لا كتاب لهم ولا دين . وهم كافرون بالاتفاق يحل للسلطان مالهم ودمهم حتى يرجعوا عما هم فيه من الضلال كما أفتى بذلك محمد البرقعلي الكردي [٦١] وغيره من العلماء . وهم أحد الفرق الضالة من فرقة الإسلام كما

---

(٦١) ذكره شرفخان البدليسي في ( شرفنامه ) ١/١٢٣ و٣٥٠ ) وقال عنه : مولانا محمد برقلعي الذي اشتهر بين العلماء والفضلاء بأنه زعيم الفقه والحديث فضلاً عن أن له في علم النحو حاشية على الخبيصي وعلى الهندي كتبها باسم شرف حاكم بدليس فهي منظورة للخاص والعام ، فقد نشأ هذا العالم أيضاً في مدينة بدليس . وذكر في الموضع الأول أنه كان بالجزيرة . وقد ذكر المترجم الأستاذ محمد علي عوني أن الخبيصي شرح على تهذيب المنطق ، وهذا صحيح ، وله كذلك شرح على كافية ابن الحاجب باسم الموشح ، وتوجد عدة نسخ خطية منه في مكتبات العراق وتركيا ، كما توجد نسخة من حاشية محمد برقلعي على شرح الخبيصي في دار صدام للمخطوطات ولكن لم يذكر اسم المؤلف في الفهرس . وقد نقل صديق الدملوجي هذا

أشار إلى ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ افترقت بنو إسرائيل على اثنين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا واحدة ﴾[٦٢].

ولنرجع إلى ذكر الأكراد ، أما بلادهم ومساكنهم فهي من بحر هرمز إلى نواحي ملاطية ومرعش طولاً ، ومن بلاد الإيران إلى الموصل وعراق العرب عرضاً ، وقد تقدم ذكر أصلهم ونسبهم آنفاً .

ثم حكم بدياربكر پير بدر بن پير موسى بن پير منصور بن پير حسين الأعرج الكردي الهكاري ، ودياربكر عبارة عن ممالك ما بين النهرين وتشمل على ناحية كبيرة ومدائن كثيرة ، ولذا أتى بصيغة الجمع ، وتسميتهم بذلك لآمد السوداء غلط مشهور ، سميت بذلك لأنها كانت مقر تخت سلطانها بكر بن وائل وهو من ملوك العرب ، ومن جملة ممالك دياربكر : ماردين والجزيرة واسعرت والخابور والرقة والبيرة والمعدن إلى نواحي وان .

ولنرجع إلى ذكر پير بدر ، والقصة في ذلك أن نسبه يتصل بالعباس بن عبد المطلب [٦٣] ، فأما جده پير منصور بن حسين الأعرج كان عابداً عالماً من أهل الكشف والكرامات ، ومسقط رأسه بقرية من قرى الهكاري من بلاد الأكراد ،

---

المبحث في كتابه ( اليزيدية ) ص ٤٠٧-٤١٢ . وبحوزتنا مخطوطة لحاشية على شرح الهندي على الكافية كتبت في مدينة بدليس في عهده أو قريب منه دون أن يذكر عليه اسم المؤلف .

(٦٢) هذا الحديث صحيح روي عن جمع من الصحابة ، وانظر ( سلسلة الأحاديث الصحيحة ) لشيخنا ناصر الدين الألباني رحمه الله ( ٢٠٣ و١٤٩٢ ) .

(٦٣) يقول البدليسي ( ١٧٢/١ ) : ( بموجب شجرة النسب التي بأيدي أولاده الآن يصلون في البطن السابع عشر إلى سيدنا علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم جميعاً ) ، ومعلوم أنه كان من دأب الأمراء والمشايخ الكرد إلحاق نسبهم بكبار الصحابة لكسب طاعة الناس وإضافة الشرعية على حكمهم .

فانتقل من الهكاري إلى نواحي أكل واستوطن بقرية تسمى پيـران وهي قرية مـــن قرى آمد السوداء ، فاجتمع عند پيـر منصور من المريدين والصوفية خلـــق كثـير واشتهر بالزهد والورع ، وكان يقصده خلق كثير للزيارة إلى أن توفي پيـر منصـور إلى رحمة الله تعالى ودفن بقرية أكل [ اگيل ] ، وقيل بقرية پيـران ، ثم جلس مكانـه ولده لصلبه پيـر موسى واشتهر أيضاً كأبـيه واعتقد به أهل تلك البلاد واجتمـع لديه خلق من المريدين أكثر مما اجتمع لأبـيه پيـر منصور ، ثم تـوفي پيـر موسـى وجلس مكانه ولده لصلبه پيـر بدر المذكور واجتمع لديه أولئك الجمهور واعتقدوه كما اعتقدوا بأبويه واعتقدوه مرشداً كاملاً ، فتفكر پيـر بدر بحال مردته فسـولت له نفسه حب الرئاسة والدنـيا فمال إليها ، فألقى عن رأسه التاج ، ولبس الحريـر والديباج ، واستولى على بلدة أكل واتخذها دار ملكه ، ثم استولى علـى مـاردين وآمد ونصيبين والخابور وسنجار وغيرها من ممالك دياربكر ، وصفت له تلك البلاد فبينما هو في أمان من الزمان إذ أقبل لحربه الملك أرتق خان ، وانتزع من يده هـؤلاء البلدان ، كما سيتلى عليك بعون الملك المنان .

# فصل

## في ذكر الملوك الأرتقية

أولهم: الملك أَرْتُق :

بفتح الهمزة وسكون الراء وضم التاء وسكون القاف ، ومعناه بلغتهم : الزائد ، وهو أرتق ابن أكسوك [٦٤] ، ومعناه الناقص ، ابن ايلغازي بن داود ، وكان في مبدأ أمره جندياً من أدنى جنود السلطان ألب أرسلان السلجوقي المار ذكره ، فشاهد منه الملك أرسلان شجاعة في بعض غزواته ، فأعجبته شجاعته ورفع منزله وجعله رئيساً على بعض الجند ، وكان كلما أرسله لغزوة عاد منها مؤيداً منصوراً ، فوقع عند السلطان ألب أرسلان موقعاً حسناً ولم يزل مرتقياً من رتبة إلى رتبة حتى جعله من أعظم وزرائه وفوض إليه أكثر الأمور ثم زوجه بابنته ونصب له فرساً فاخراً وأظهر جميع زينته سبع ليال بأيامها ، وولد للملك أرتق من ابنة السلطان ثلاثة أولاد : نجم الدين ، وأمين الدين ، وسنقور .

أما سنقور فإنه توفي في حياة والده ، وأما نجم الدين وأمين الدين فعاشا بعده وحكما مكانه ـ كما سيأتي من قريب إن شاء الله تعالى ـ ، ومسقط رأس الملك أرتق بقرية تسمى : ( شهر زمان ) من أعمال ما وراء النهر ، وأبوه كان راعياً يرعى الغنم ، وقيل كان من أمراء الدولة السلجوقية ، والله تعالى أعلم ، وكانت ولادته سنة أربعمائة ، وعاش من العمر ثمان وسبعين سنة ، وكان من أهل الشجاعة

(٦٤) في وفيات الأعيان لإبن خلكان ( ١٩١/١ ) ط دار الثقافة – بيروت ، تحقيق د. إحسان عباس : أُرتق بن أكسب ، وفي البداية والنهاية ( ١٣٨/١٢ ) أرتق بن ألب .

والسماحة ، شفيقاً على الرعية ، مكرماً لأهل العلم ، مظفراً حيثما توجه ، مؤيداً في أسفاره وغزواته .

والسبب في مجيئه : أرسله ألب أرسلان ، لاستخلاص ممالك دياربكر من پير بدر بن پير موسى ، وقد قدمنا ذكره أنه مال إلى الرئاسة الدنيوية واستولى على أكل وما حولها ، ولما ظهرت دولة آل سلجوق وعلا صيتهم إلى العيوق ، واستولوا على بلاد خراسان والروم ، وأخذوا الخراج من آل عباس ، وشاركوهم بذكر الخطبة والسكة ، كما تقدم ذكرهم ، فعصى عليهم پير بدر صاحب أكل في أيام السلطان ألب أرسلان فأرسلوا لتأديبه الملك أرتق بن أكسوك ، فلما قدم أكل انهزم منه پير بدر إلى الأمير حسام الدين صاحب مفارقين ، فتوجه نحوه إلى مفارقين [ ميافارقين ] ، فتحصنت منه المدينة ووقع بين الفريقين حرب عظيم ، فأعطى الله تعالى النصر للملك أرتق فدخلها عنوة بالسيف وقتل الأمير حسام الدين وپير بدر وأولادهما ، واستولى على مفارقين سنة ٤٦٩ ، ولما شاهد السلطان ألب أرسلان منه هذه الفتوح فوض إليه حكومة هذه البلاد بأسرها ولم يزل دولته في معارج الارتقاء حتى استولى على ماردين وممالك دياربكر بأسرها ، ثم انتقل إلى ماردين واتخذها دار ملكه ، وانتشر صيتهم في الآفاق ، واستولوا على ممالك أذربيجان وعراق العرب ومدائن الخابور وحلب وبعض ممالك الشام - كما سيأتي في تراجمهم إن شاء الله تعالى - ، ثم إن الملك أرتق توجه لافتتاح ممالك أذربيجان فافتتح بعضها وأدركه الأجل المحتوم فتوفي ببايزيد سنة ٤٧٨ (٦٥) .

بعده ولده :

---

(٦٥) في وفيات الأعيان إبن خلكان ( ١٩٢/١ ) والبداية والنهاية لإبن كثير ( ١٣٨/١٢ ) : توفي سنة ٤٨٤ .

### الملك جبار المعروف بأمين الدين الغازي بن الملك أرتق :

فإنه لما توفي أبوه وكان معه بايزيد جلس في مكانه واجتمع إليه الجند فاستولى على جميع ممالك أذربيجان والأرمن ، وعاد إلى ماردين منصوراً ، وخرج لاستقباله الخاص والعام ، وعزوه بوالده ، وهنئوه بالمنصب الجليل ، وجلس بالقلعة في مكان والده أياماً ، ثم توجه لافتتاح بلدة حسنكيفا والصور فافتتحهما وعاد إلى ملردين ، ثم إنه وقع بينه وبين أخيه الأكبر إيلغاز بغض وعداوة ، فارتحل إيلغاز إلى دياربكر وتحصن بها ، فتوجه الملك جبار لإخراجه من آمد ، فاستقبله الملك إيلغاز ووقع بين الفريقين حرب عظيم فانكسر جيش إيلغاز وهرب المذكور وتحصن بآمد ، فأقلم الملك جبار على محاصرة المدينة ستة أشهر وأرسل إلى أهل آمد وطلب منهم أن يسلموه الملك إيلغاز ولهم منه الأمان ، فتشاجر أهل المدينة في ذلك منهم من قال : نقاتله ، ومنهم من قال : نسلمه وننجو من المحاصرة ، فهرب إيلغاز إلى مفارقين وتحصن بها ، فتوجه إليه الملك جبار ووقع بين الفريقين حرب عظيم وأعطى الله تعالى النصر للملك إيلغاز فانكسر جيش الملك جبار وقتل المذكور في تلك المعركة سنة ٤٨٥ ، وكان ملكه ٧ سنوات ، ومن بعده أخوه :

### الملك إيلغازي المعروف بنجم الدين بن الملك أرتق :

كان من أهل الديانة والإنصاف والكرم والألطاف ، فإنه لما قتل أخوه الملك جبار تولى مكانه وتوجه إلى ماردين وجلس على سرير والده ، وباشر بعمارة جامع ومدرسة حتى أتمه ، ثم أمر بتتميم مدرسة أخيه الملك أمين الدين جبار بالقرب من جامعه ، وكان أخوه أمين الدين شرع في بنائها ولم يتيسر له الإتمام ويعرف جامع أمين الدين بجامع البيمارستان ، ومن فتوحاته : بلدة الموصل ، وأربل ، وشهرزور ، والراتوق ، وسنجار ، والخابور ، والسويدة ، والرقة ، وبيرجك ، وحلب الشهباء .

والقصة في فتوح حلب : أن الإفرنج قصدوها بجيوش وافرة وليوث متكاثرة [٦٦] ، وحاصروها أشد الحصر ، ومكروا بها كل المكر ، ونفد ما كان عندهم من الذخائر ، واجتمع بها خلق كثير من القرى والعشائر ، ووقعوا في ضيق وحرج ، وطلبوا المدد والفرج ، فلم يأتهم مدد من أحد ، ولا نفعهم العُدَدُ والعَدَد ، فاستغاثوا بصاحب ماردين الملك نجم الدين ، فتوجه نحو حلب ، ومعه الفرسان العجب ، ونزل عليهم كالقضاء المنزل ، ودك فيهم الأرض وزلزل ، فكم من أبطال جندل ، وكم من فرسان بلبل ، فولت الإفرنج هاربين ، وللنجاة طالبين ، وعاد المسلمون سالمين ، ﴿ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ [٦٧] وولى عليها ولده لصلبه الملك حسام الدين تمرطاش ، وثنى عنان التوجه نحو ماردين ، وكان الإفرنج قد طلبوا النجاة من بلادهم ، فلحقهم عشرة آلاف مقاتل ، قد تأبطوا الشر ، لا يبالون بمن مضى ومر ، وشنوا الغارة على نواحي حلب ، فمنهم نهب ومنهم سلب ، فتحصنت منهم مدينة حلب ، وذهب من ذهب ، وهرب من هرب ، وهرب الملك حسام الدين تمرطاش ، ولحق بوالده وعقله قد طاش ، فتوجه أيضاً نحوهم نجم الدين الفاضل بعشرين ألف مقاتل ، ومعه علي بن مبارك بن شبل الكلابي ، وتحت رايته طائفة من بني كلاب ، والأمير صنعان بن الأمير أرسلان الملي صاحب بدليس وأرزن الروم ، وسار متوجهاً بتلك الأبطال ، منشداً بلسان الحال :

الخَيْلُ والَّليْلُ والبَيْدَاءُ تَعرِفُني
والسَّيفُ والرِّمْحُ والقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ [٦٨]

---

(٦٦) كان ذلك سنة ٥١٣ هـ كما في البداية والنهاية ( ١٨٤/١٢ ) .

(٦٧) سورة يونس من الآية ١٠ .

(٦٨) البيت لأبي الطيب المتنبي ( ٣٠٣ ٣٥٤ هـ ) من قصيدة مطلعها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم　　ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وكان جمع الكفار ثلاثين ألف فارس وتسعة آلاف مقاتل ، فلما تراءى الجمعان ، وعظم الحرب والطعان ، نكص المشركون على أعقابهم ، وأيقنوا بدمارهم وعذابِهم ، وولوا بجمعهم منهزمين ، وصعدوا جبلاً يسمى تل عفرين ، فأحاط المسلمون بالجبل من كل جانب ، وكان للجبل ثلاث طرق ، فافترق الغزاة ثلاث فرق وصعدوا الجبل إليهم ، وكبَّروا بالسيوف عليهم ، فارتج لصوتهم تلك الأودية والجبال ، وحطموا الرجال وطحنوا الأبطال ، ولم يفلت من الإفرنج سوى سبعين كلباً ، سلب أموالهم المجاهدون سلباً ، وقطع أنوفهم وأذنابَهم وأنزل صاعقة العذاب عليهم ، ونظم أحوال المدينة من بعد الكفار ، وولَّى عليها ابن أخيه سليمان بن الملك جبار ، وعاد إلى بلده غانماً منصوراً ، وامتلأ قلبه فرحاً وسروراً (٦٩) ، توفي نجم الدين سنة ٥١٦ ، وكان ملكه ٣١ سنة ، ومن بعده ولده لصلبه :

الملك حسام الدين تيمورطاش بن الملك نجم الدين إيلغاز :

فانقاد له الخاص والعام ، ودخل تحت ملكه بعض مدائن العراق وبعض مدائن الشام ، وبسط بساط العدل والأمان ، وطاب له الوقت والزمان ، ما عاداه عدو إلا ذل ، ولا خاصمه خصام إلا ضل ، وطهر الأرض من المفسدين ، وطرد المردة من ماردين ، وبنى بها مدرسة فاخرة تعرف بمدرسة الحسامية ، وإلى جانبها جامعاً ، وعيَّن لهما من الأوقاف والوظائف الكثيرة ، وكان من أهل الجود والكرم ، ومدحه أعرابي ببيتين فأعطاه عشرة بدراة من العين ، وهما :

| | |
|---|---|
| ما نوال الغمام وقت ربيع | كنوال الأمير وقت سخاء |
| فنوال الأمير بدرة عين | ونوال الغمام قطرة ماء |

(٦٩) وكان السلطان محمود قد أقطعه سنة ٥١٥ هـ مدينة ميافارقين ، فبقيت في يد أبنائه حتى سنة ٥٨٠ هـ إذ أخذها منهم صلاح الدين الأيوبي . انظر البداية والنهاية لابن كثير ( ١٢/١٨٨ ) .

والبدرة مكيال ، ويقال : إنه وهب ما كان يملك في يوم واحد ، حتى إنه وهب ثيابه .

وذكر ناشب بن هلال الحرانـي البديهي الواعظ ، ويلقب بالبديهي لأنه كـان يقول الشعر بداهة وارتجالاً ، قال : (( قصدت دياربكر مكتسباً بالوعظ ، فلما نزلت ماردين دعانـي صاحبها تـيمورطاش بن إيلغاز بن أرتق للإفطار عنـده فـي رمضان ، فحضرت إليه فلم يرفع مجلسي ولا أكرمنـي ، فقال بعد الإفطار لغـلام لـه : آتنا بكتاب ، فجاء بكتاب ، فقال : ادفعه إلى الشيخ ليقرأ فيـه ، فـازداد غيظي لذلك ، وفتحت الكتاب فإذا هو ديوان امرئ القيس ، وإذا أول مـا فيـه قصيدته المشهورة :

ألا عـم صباحـاً أيها الطلل البالي

وهل ينعمن من كان في الزمن الخالي

فقلت في نفسي : أنا ضيف غريب لأستفتحن ما أقرأه على سلطان كبير وقـد مضى هزيع من الليل ، فقلت :

ألا عـم مساء أيها الملك العالي

ولا زلت فـي عز يدوم وإقبال

ثم أتممت القصيدة ، قال : فتهلل وجه السلطان لذلك ورفع مجلسي وأدنانـي إليه وكان سبب حظوتـي لديه )) .

ثم إن الملك حسام الدين أقر أخاه سليمان بن الملك نجم الدين على مفـارقين ، وأقر ابن عمه سليمان بن الملك أمين الدين على مدينة حلب ؛ لأنـهما كان قـد نصبهما والده نجم الدين عليهما ، واستمر على ذلك إلى أن قضى نحبه إلى رحمـة الله

تعالى ، توفي حسام الدين تيمورطاش سنة ٥٤٨ ، ومدة ملكه ٣٢ سنة ، ودفن بمدرسته التي بناها ، ومن بعده ابن عمه [٧٠] :

### نجم الدين ألبي بن الملك أمين الدين جبار :

وكان من أهل العلم والديانة والصدق والأمانة ، ونهى الناس عن المنكرات وتناول الملاهي والمسكرات ، وكان يؤم الناس بنفسه في الصلاة ، وكثيراً ما نقلوا عنه من الخوارق والكرامات ، وكان منصوراً حيثما توجه ، فلله دره من سلطان عادل وإمام كامل ! توفي نجم الدين ألبي سنة ٥٦٠ [٧١] ، وملكه ١٢ سنة ، ودفن بمدرسة حسام الدين . ومن بعده ولده لصلبه :

### قطب الدين إيلغازي الغازي بن نجم الدين ألبي :

وكان يعظم العلماء والصلحاء ، ويراعي الضعفاء والفقراء ، ويؤيد الحدود الشرعية والعرفية ، ويتصف بالأخلاق المرضية ، وكان كثير الخيرات والمبرات ، ويرغب في الثواب والحسنات ، فمن ذلك بناء الجامع الكبير المعلوم عند الصغير والكبير ، وبنى به منارتين شامختي البنيان ، مدورتي الأركان ، لم يوجد مثلهما في البلدان ، ولا يقدر أحد على عمارة مثلهما في هذا الزمان ، إحداهما عن شرقي الجامع والأخرى عن غربيه ، وعلق عليهما زنجيراً من الحديد والفولاذ ومشحوناً بالطلاسم والأرصاد ، أما إحداهما لا يرى أثر في هذا الزمان ، ويقال إنه هدمها تيمور گورگان ، ونقلوا بعد ذلك الزنجير إلى قبتي المدرسة الزنجيرية التي بناها الملك الطاهر سلطان عيسى ، ولا زالت الخطباء تخطب باسمه ،

---

(٧٠) يذكر ابن العبري في ( تاريخ مختصر الدول ) وابن الأثير في ( التاريخ الباهر ) أن نجم الدين هذا هو ابن حسام الدين لا ابن عمه أمين الدين ، نقلاً عن ( مدينة ماردين ) ص ١٧٨ .

(٧١) يذكر الدكتور حسن شميساني ( مدينة ماردين ص ١٨٣ ) أن وفاته كانت سنة ٥٧٢ هـ ( ١١٧٦ م ) وقيل سنة ٥٧٥ هـ .

والدراهم تسك برسمه ، حتى أجاب دعوة الرحمن ﴿ كُلُ مَنْ عَلَيـــها فَــان ﴾ [٧٢] وذلك في سنة ٥٩٨ ، وكان ملكه ٣٨ سنة [٧٣] ، ودفن بالمدرسة التـــي أنشأتـــها أمه الست الرضية في حارة باب الصور ، وقبره إلى جانب قبرها يتعـــاهده النـــاس بالزيارة ، ومن بعده ولده لصلبه :

### الملك ناصر الدين أحمد المعروف بالشهيد ابن الملك قطب الدين :

كان عالماً فاضلاً تقياً نقياً ، يصوم يوماً ويفطر يوماً ، يبجل العلم وأهلــــه ، ولم يدع طالب علم إلا أغناه ، ولا فقيراً إلا أعطاه ، ويرحم الضعفة والمساكين ، وينصر بسيفه أركان الدين ، وله خيرات وافرة ، ومبرات متكاثرة ، فمنها بنـــاء مدرســـة عظيمة تشمل على ثمانين حجرة وتلقب بذات الثمانين وبالشهيدية أيضاً ، ورتب لها من الأرزاق والوظائف ما يزيد على الكفاية أضعافها ، وأنشأ أيضاً جامعـــاً واســـعاً ببلدة ( قوجحصار ) وإلـــى جانبه مدرسة فاخرة ومنارة شامخة ، ولم يبق الآن سوى الجامع ، وبنى أيضاً بخزرم مدرسة عظيمة ورتب لها من الأوقاف والوظائف ، إلى غير ذلك من الخيرات والحسنات . وخرج عليه حسن بيك البايندوري سلطان تـــبريز فتوجه إلى محاربته نحو أذربيجان ، ووقع بين الفريقين حرب عظيم فانكسر جيـــش الملك ناصر الدين وقتل في تلك المعركة إلى رحمة الله تعالى ، فتأسف عليه حسن بيك وقتل قاتله وأمر بغسله وتكفينه ونقل نعشه إلـــى ماردين ودفن بـــمـــدرسته ســـنة ٦٣٢ [٧٤] ، وكان ملكه ٣٥ سنة ، ومن بعده ولده لصلبه :

---

(٧٢) سورة الرحمن ، الآية ٢٦ .

(٧٣) وفي ( مدينة ماردين ص ١٨٣ ) : مات سنة ٥٨٠ .

(٧٤) وقيل إنه قتل سنة ٦٣٦ وقيل بل ٦٣٧ قتله مماليكه خنقاً في الليل وهو نائم عند نســائه ، وقيل بل قتله ابنه وهو سكران واستولى بعده على ماردين ، وكان بدأ حكمه سنة ٦٠١ ، وكان عمره يوم قتل سبعاً وخمسين سنة ( مدينة ماردين ص ٢٠٩ - ٢١٠ ) .

الملك السعيد بن الملك ناصر الدين :

وكان ملكاً جباراً شجاعاً قهاراً [٧٥] ، وجهز جيشه وتوجه لمحاربة حسن بيك البايندوري ووقع بين الفريقين حرب عظيم ، فانكسر جيش حسن بيك وانهزم المذكور فاحتوى الملك السعيد على خيامه وأمواله وعاد غانماً منصوراً ، فبينما هو في أمان من الزمان إذ ظهر هولاكو خان الجنكيزي واستولى على بغداد وقتل المستعصم بالله العباسي ، وتوجه نحو ماردين ، فجهز الملك السعيد جيشه وجعل على الجيش أميراً من أولاد عمه ، فالتقى الجمعان بنواحي سنجار فوقعت الهزيمة على عسكر ماردين وقتل ابن عم الملك السعيد فجمع جمعاً غيره ووجههم ثانية إلى هولاكو وجعل أمير الجيش ابن عمه الآخر ، فالتقى العسكران على نصيبين ، وانكسر جيش ماردين و [ قتل ] جماعة من أقاربه ، فعند ذلك تحصن الملك السعيد وغلق أبواب البلد وأنفق على أهل البلد ومن كان قد انهزم إليه من أهل القرى ، ومكث في المحاصرة سنتين ، ولم يحتاجوا إلى الذخائر أصلاً ، ثم توفي الملك السعيد في تلك المحاصرة سنة ٦٥٦ [٧٦] ، وملكه ٢٤ سنة ، ومن بعده ولده لصلبه :

الملك مظفر قره أرسلان :

فإنه لما توفي أبوه الملك السعيد كان ببيره جك إلى جانب الفرات حاكماً من قبل أبيه ، فلما سمع بموت أبيه حزن عليه وأقام عليه المآتم ثلاثة أيام ثم أخذ من الهدايا والتحف والعبيد والخيل وتوجه نحو عسكر هولاكو ونزل في خيمته ووقف موقف العبودية والخدمة في مكان الغلمان بخشوع تام ، فرق هولاكو لحاله فأجلسه وحياه تحية الملوك العظام ، وخلع عليه من الخلع الفاخرة ، وقال له : إن مات أبوك فأنا

---

(٧٥) نسبه كما في البداية والنهاية ( ٢٢٤/١٣ ) كالتالي : هو الملك السعيد نجم الدين بن إيلغازي بن المنصور أرتق بن أرسلان بن إيلغازي بن السني بن تمرطاش بن إيلغازي بن أريثي .

(٧٦) في البداية والنهاية ( ٢٢٤/١٣ ) و ( مدينة ماردين ص ٢١٠ ) كانت وفاته سنة ٦٥٨ هـ .

أبوك ، وإن نفدت عليك الأموال فهذه الأموال وكن قرير العين وهذه مدينة ماردين هبة مني إليك ولا أنازعك فيها ما دمت حياً .

ثم إن هولاكو خان رحل عن ماردين وشيعه الملك مظفر إلى نصيبين ، وعاد إلى مكان آبائه وأجداده وفاز بنيل مقصوده ومراده ، إلا أنه شارك هولاكو بذكر الخطبة ونقش اسمه على الدراهم والدنانير . وضعفت دولة الأرتقية وانتزعوا من يدهم حلب وأذربيجان وشهرزول [ شهرزور ] والموصل ولم يبق في يدهم سوى دياربكر وماردين وما حولهما من البلاد ، وعصى عليه حاكم حسنكيفا محمد ، فتجهز الملك مظفر لمحاربته وانتزاع الحصن من يده ، فتبع عشائر حسنكيفا ملكهم محمد وكانوا إذ ذاك ثلاثة عشر قبيلة وهم : الآشتية والمحلمية والمرانية والبجنوية والشقاقية والاستوركية والكوردلي الكبير والكوردلي الصغير والآشانية والكيشيكية والجيلكية والخندقية والسوهانية ، فاتفقت هؤلاء العشائر مع صاحب الحصن ووقع بين الفريقين حرب عظيم فانكسر جيش الملك مظفر وعاد خائباً ، واستولى الأمير محمد على الحصن وعشائره المذكورة وعلى قصبة أسعرت والبشيرية وكفار الطور وغيرها . وهذا الأمير محمد كان من أولاد الملوك الأيوبية حكام مصر والشام ، فلما انقرضت دولتهم سنة ٦٤٩ ومضى على ذلك مدة من الزمان كان قد ظهر من أولادهم الأمير محمد ببلدة حماة وتوجه إلى ماردين في أيام الملك السعيد فأكرمه وجعله من جملة أمرائه ، ثم فوض إليه حكومة الصور وحسنكيفا ، وطاب له المكان حتى توفي الملك السعيد في محاصرة هولاكو خان واستولى ولده الملك مظفر وجرى بينهما هذه الحروب وأظهر العصيان كما قيل : اتق شر من أحسنت إليه .

وكان الملك مظفر من أهل العلم والفراسة والعقل والكياسة ، ومن خيراته وحسناته :

بناء مدرسة المظفرية ، وتعرف بالبلقاء ، سميت بذلك لكونها لبنة من الحجر الأسود ولبنة من الحجر الأبيض ، وبنى إلى جانب المدرسة جامعاً وزاوية لأهل الطريق ، وعين لهذه المذكورات من الوظائف والأوقاف وعمر ماكان قد انهدم من المساجد القديمة ، توفي سنة ٦٨٤ [٧٧] ، ودفن بمدرسته وملكه ٢٨ سنة ، ومن بعده ولده لصلبه [٧٨] :

## الملك منصور :

وكان صاحب شوكة ورفعة بين الأمثال والأقران ، ويرعى في زمنه الشاة والذيب ، وينسى أوطانه به كل غريب ، وأضحت ماردين به عامرة ، والأثمار كثيرة وافرة ، والأسعار رخيصة متكاثرة ، وصار صيته مشهوراً ، ولم يدع خراباً إلا جعله معموراً ، وكان من أهل العشرة والنشاط والطرب والانبساط ، وكان عاملاً بما قيل : [٧٩]

باكر إلى اللذات واركب لها
سوابق اللهو ذوات المزاح
من قبل أن ترشف شمس الضحى
ريق الغوادي من ثغور الأقاح

وكان قد حصل لديه اللذات الخمسة وهي هذه :

---

(٧٧) في البدية والنهاية ( ٣٣١/١٣ ) و ( مدينة ماردين ص ٢٤٧ ) مات سنة ٦٩١ ، وفيهما أن الذي خلفه هو ولده شمس الدين داود الملقب بالملك السعيد .

(٧٨) في ( مدينة ماردين ص ٢٤٨ ) ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود الملقب بالسعيد وأقام في الملك سنة وتسعة أشهر ، ثم جاء بعده أخوه الملك منصور نجم الدين غازي الثاني أبو الفتح .

(٧٩) لم نطلع على قائل الأبيات المذكورة هنا في المصادر المتوفرة لدينا .

مـــا العمر إلا خمسة لا سادس

لهمو وان قصرت بـــها الأعمار

زمـــن الربيع وشرخ أيام الصبا

والكأس والـــمحبوب والدينار

وكان قد قسم فصول السنة أربعة أقسام : أما فصل الربيع فإنه كان يســـكن بروضة الفردوس عن شرقي ماردين ، وكان قد اجتمع لديه طاءات الربيع وهـــي هذه :

جاء الربيع وعندي سبعة كملت

وليس فيها مـــن اللذات إعواز

طار وطبل وطنبور وطاس طلا

وصـــوت طفل وأطيار وطناز

وأما فصل الخريف برياض رشمل وقبالا ، وكان قد حصل عنده الدالات وهـــي هذه :

جـــاء الخريـــف وعندي ستة جمعت

وعـــن ســـواها مـــن اللذات تكفينا

دار ودف وديـــنـــار ودن طـــــلا

ودولـــة ودواء للـــمحـــبـــيـــنـــا

وأما فصل الشتاء كان يسكن بحزرم وكان قد جمع عنده كافات الشتاء وهـــي هذه :

جـــاء الشتاء وعندي من حوائجه

سبع إذا الغيث عن حاجاتنا حبسا

كـــن وكيس وكانون وكأس طلا

بعد الكباب وكسٌ ناعم وكـــسا

وأمـــا في الصيف كان يسكن بيايلاق السلطان وكان قد جمع عنـــده راءات الصيف وهي هذه :

عندي فديتك راءات جمعت لها — أتى بها الحر إن وافى وإن وردا

رف وروح وريحان وريق رشا — ورفـــرف ورياض ناعم وردا

وكان يصحب معه في هذه الأماكن من الأكابر والعلماء والظرفاء كـــل جميـــل المنظر ولطيف المخبر ، ويقطع زمانه بعيش هنـــي وقلب عنـــي ، ولا يحمل علـــى قلبه هـــمـــاً ولا غماً إلـــى أن خمد منه الصوت ولبى دعوة ﴿ كلُ نَفْـــسٍ ذائِقَـــةُ الموتِ ﴾ [٨٠] سنة ٧١١ [٨١] ، ودفن بمدرسة ابن عمه السلطان خليـــل ، وكـــان ملكه ٢٧ سنة ، ومن وزرائه : الأمير شجاع الدين والأمير عز الدين ، ومن بـــعده ولده :

## الملك العادل أحمد [٨٢] :

إلا أنه لم يساعده الأمل بل وافاه الأجل ، وكان ملكه ثمانـــية عشر يوماً ، ومـــن بعده أخوه :

## الملك صالح :

كان من أهل العلم والديانة والمروءة والديانة ، وقد شـــاهدوا منـــه العجـــائب والكرامات والخوارق والإلهامات ، وانقاد لأمره كل عاص من دان وقاص ، ودخل تحت حكمه ممالك آبائه بأسرها ، يقال : إن كل من عصاه وخالفه كـــان يـــرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المنام ويأمره بالإطاعة للملـــك الصـــالح ، ~~وبارك الله تعالى له في نسله وذريته ،~~ وعاش له من الأولاد مائة ولد الأربعون مـــن

(٨٠) سورة آل عمران من الآية ١٨٥ ، وسورة الأنبياء من الآية ٣٥ ، وسورة العنكبوت مـــن الآية ٥٧ .

(٨١) في البداية والنهاية ( ٦٨/١٤ ) كانت وفاته سنة ٧١٢ في تاسع ربيع الآخر وقد بلغ مـــن العمر فوق السبعين .

(٨٢) في ( مدينة ماردين ص ٢٤٩ ) اسمه علي ، قيل خلع وقيل مات مسموماً .

الذكور والستون من الإناث ، وكان إذا ركب يركب معه الأربعون ، وكـان قـد قسم ليله ثلاثة أقسام : ثلث مع الحريم ، وثلث للمنام ، وثلث للعبادة ، وكان لـه أربعة من الوزراء العظام أحدهم : الحاج نور الدين بن الأمير عثمان ، وأمير علي بن علم الدين السنجاري ، وسيف الدين بن الأمير سنقور ، والأمير مجير الديـن بـن الأمير المستقيم ، وولى أولاده على بعض الممالك ، فولى على دياربكر ولده الملـك الناصر محمد وتوفي بها ، ثم ولده الملك عمر وتوفي ، ثم الملك سليمان وتـوفي ، ثم الملك العادل ، وولى على سنجار ولده الملك اللطيف وتوفي بها ، ثم الملك الراشـد ، وولى على رأس العين ولده الملك برهان الدين وتوفي ، ثم الملك داود .

توفي الملك الصالح فجأة سنة ٧٦٥ وكان عمره ٩٧ سنة ، وملكه ٥٤ سـنة ، ودفن بمدرسة ولده الملك اللطيف ، وبموته ضعفت دولة الأرتقية ، ومـن بعـده ولده :

## الملك منصور الثانـي :

كان جميل الصورة ، حسن السيرة ، خالص النـية ، شفيقاً على الرعية ، وخرج عليه بيرام خواجة صاحب الموصل ، وضرب خيامه ببر ماردين ، فوجه المذكور إليـه وزيره التونـيغا صاحب المدرسة المشهورة ووقع بين الفريقين حرب عظيم فوقعـت الهزيمة على التونـيغا ثم إن الملك منصور راسل السلطان أويس صـاحب تـبريز وطلب منه الاستمداد ، فتوجه السلطان أويس بنفسه نحو ماردين ووقع بينهم وبـين بيرام خواجه حرب عظيم فوقعت الهزيمة على بيرام خواجه وأسروا منه خلقاً وقتلـوا غالب عسكره ، فانهزم بيرام خواجه نحو الموصل فتبعه العسكر وانتزعوها من يـده وقبضوا عليه وقتلوه ، وقيل : أعموا كريمته بالميل . ثم إن الملك منصور أضـاف السلطان أويس وأكرمه غاية الإكرام ، وعاد إلى تبريز بعون الملك العزيز . تـوفي الملك منصور سنة ٧٦٦ ، وكان ملكه سنة واحدة ، ودفن بمدرسة الملـك حسـام الدين ، ومن بعده :

### الملك محمود بن الملك منصور :

ومن خيراته وحسناته بناء جامع بحارة باب الصور ، ووقع بينه وبين الملك داود بن الملك صالح بغض وعداوة ، وافترق أهل ماردين فرقتين ووقع بينهما حرب عظيم فكان الغلب للملك داود فقتل الملك محمود سنة ٧٦٨ ، وكان ملكه سنتين وشهرين [(٨٣)] ، ومن بعده :

### الملك داود بن الملك صالح :

كان من أهل السخاء والشجاعة والفصاحة والبراعة ، وكان له أخت تسمى : دنيا خاتون ، وكانت ذات خدم وأتباع ، وأمرها مسموع ومطاع ، طمعت في السلطنة بإفساد بعض الوزراء ، وقبضت على أخيها الملك داود وحبسته في السجن وجلست في مكانه ثلاثة أيام ، وشرعت في الجور والظلم على الخاص والعام ، وقتلت الوزير ضياء الدين ، فاتفق بعض الأكابر على خلعها فأطلقوا الملك داود من الحبس ، فقبض في الحال على أخته دنيا وأراح روحها من الدنيا . توفي الملك داود سنة ٧٧٨ ، وكان ملكه (٩) سنوات و (١٠) أشهر ، ودفن بمدرسة الحسامية ، ومن بعده ولده :

### الملك الطاهر [(٨٤)] عيسى بن الملك داود :

وكان من أهل الكرم والسخاء ، محباً للعلماء ، مقرباً للفضلاء ، وله خيرات وحسنات .

فمنها : بناء مدرسة فاخرة وإلى جانبها جامع ، وتعرف بمدرسة الزنجيرية ، وقد تقدم أن الزنجير كان على المنارتين بالجامع الكبير الذي بناه قطب الدين نقله إليها بعدما عاد من أسر تيمور ، فبينما الملك الطاهر في أرغد عيش إذ هجم

---

(٨٣) في ( مدينة ماردين ص ٢٦٨ ) ملك أربعة أشهر فقط من سنة ٧٦٩ حيث خلع .

(٨٤) في ( مدينة ماردين ص ٢٦٨ ) الملك الظاهر .

قره محمد التركماني القرهقوينلي على بلاده ونهب ما حول ماردين من القرى ، فوجه الملك الطاهر وزيره الأمير فياض بن الأمير علي بن علم الدين السنجاري لمقاتلته ، ووقع بينهما حرب عظيم فوقعت الهزيمة على عسكر ماردين وتبعهم التركمان إلى قرية البويرة ما بين الجبلين وقبضوا على الأمير فياض ، والأمير فياض هو الذي بنى حمام الأمير ، فلما نظر الملك الطاهر إلى جيشه قد كسر وإلى وزيره قد أسر صعب ذلك عليه وأخذته الغيرة الأرتقية فترل من ساعته لمحاربة التركمان وتسلط عليهم من كل جانب ، فانكسر جيش التركمان فتبعهم الملك الطاهر وحاصرهم بدربند ضيق يعرف بدربند التركمان عن غربي ماردين وقتل فيهم مقتلة عظيمة نحواً من عشرة آلاف وانهزم قره محمد وتخلص الأمير فياض من أسره وعادوا مسرورين وذلك سنة ٧٩٣ ، ومضى على ذلك ثلاث سنين إذ دهاه تيمورلنك ووقع الملك الطاهر في ضيق وضنك ، والقصة في ذلك أن تيمور لما احتوى على بغداد وتوجه إلى هذه البلاد فاستولى في طريقه على تكريت والموصل ورأس العين والرها حتى أناخ على دنيسر وانتشر عسكره في نواحي ماردين إلى موصل العتيقة ، فعند ذلك جمع الملك الطاهر أركان دولته واستشار بهم في أمر تيمور ، فكل أشار بمقتضى عقله ، فقال الملك أني ذاهب إلى هذا الرجل - يعني تيمور - وأظهر له الطاعة والانقياد ، فإن ردني حسبما أريد فهو المراد ، وإن طالبني بالقلعة فكونوا أنتم على التأهب والمنعة وإياكم أن تسلموها إليه ، أو تعتمدوا في الكلام عليه ، وإلا أتى بالهلاك على أولكم وآخركم ، وخرجتم من باطنكم وظاهركم ، فأنا أجعل نفسي فداكم وأكفيكم بروحي ما دهاكم ، وبعض الشر أهون من بعض ، وها أنا أجس لكم النبض .

ثم استخلف ابن عمه الملك الصالح شهاب الدين أحمد بن الملك السعيد أسكندر بن الملك الصالح ، ونزل من القلعة يوم الأربعاء خامس عشر ربيع الأول سنة ٧٩٦ ، واجتمع مع تيمور في مكان يسمى الهلالية فطلب منه القلعة ، فقال :

القلعة عند أربابــها وبيد أصحابــها ، وأنا لا أملك إلا نفسي فقد قدمتها إليــك وقدمت بــها عليك ، فلا تحملنــي فــوق طاقتــي ولا تكلفنــي فــوق استطاعتــي ، فقبض عليه وأتوا به إلى القلعة وطلبها منهم ، فأبوا وقدمــه إليــهم ليضرب عنقه أو يسلموه فنبوا ، فطلب منهم في مقابله الأمان من الدراهم الفضــة مائة تومان كل تومان ستون ألفاً ، فلم يعطوه ، ثم إنه شد وثاقه وشدد عليه ونــزل بعسكره ما بين رشمل ونصيبين وموصل وأخذ بمحاصرة القلعة ، ثم أمر عســكره أن يبارزوهم بالحرب والطعن والضرب ، وذلك يوم الثلاثاء الثانــي والعشرين مــن ربيع الأول من العام المذكور ، فطبقوا على ماردين من قبل الصبــاح ، وأكــثروا بالرجة والصياح ، فتعلقوا بالسور ولم يزل جنود تــيمور بــها تمــور ، وأحلــوا الدمار بــهذه الديار ، فعموها رجفاً وهدوها زحفاً ، وتعلقوا بأهداب أرجائــها ، وتسلقوا بالسلالم من أرضها إلى سمائها ، فكان صعودهم على الأسوار من القبلــة رابــية اليهود ومن الغرب التلول ومــن الشرق المنشار ، فأخذوا المدينــة عنــوة وقسراً ، وملؤوها فسقاً وكفراً ، وانهزم أهل المدينة إلى القلعة ودبوا عليهم بالســهام والمدافع ، فقتلوا من ظفروا بالمدينة من ذكر وأنثى ، ونــهبوا ما وجدوا وأسروا من أسروا ، فجالد بعض الناس وكاد أمرهم أن يؤول إلى الشهادة ، ولا زالت آيــات القتال عليهم تتلى حتى امتلأت المدينة من الجرحى والقتلى ، واستمر ذلــك إلى أن بادر نون الظلام يونس الشمس بالانتقام ، فعاد العسكر ونزل مقابل عربون ، وقــد قتل من العسكر ما سبق العدد ، وأكثرهم من أهل البلد ، فباتوا ينتظرون الصبــاح إلى أن شق الليل مكتوم جيبه وأظهر مكنون غيبه بكّروا بكور الغراب وبــرزوا إلى الحرب والخراب ، وعصروا أهل المدينة وحاصروها أشــد حصــر ، وهدموهــا وأسوارها من الظهر إلى العصر .

ثم إن تــيمور لما آب أمله بالخيبة ولم يكن تحصيل القلعة بالهيبة ، شحذ فكــراً وجدد مكراً ، وتاب عن المقابحة وثاب إلى المصالحة ، فأرسل إليهم كتاباً مع رســول

يقول فيهم : ليعلم أهل قلعة ماردين والضعفاء والمساكين أننا قد عفونا عنهم ، وأعطيناهم الأمان على نفوسهم ودمائهم ، فليأمنوا وليضاعفوا لنا الأدعية ، فارتحل ذلك البلية إلى البشيرية ، وأرسل إلى آمد الجنود مع أمير يدعى محمود ، فتوجه بجيش طام وحاصرها خمسة أيام ، وأرسل محمود يستمده عليها ، فتوجه بنفسه إليها ، فطلبوا الأمان ، وفتحوا الأبواب ، ودخل من باب التل ، ووضع السيف في الكل ، فأباد الجميع وأبار العاصي والمطيع ، وأسروا الصغار وهتكوا الأستار ، وأذاقوا الناس لباس البأس ، والتجأ بعض الناس إلى الجامع فقتلوا منهم نحو ألفي ساجد وراكع ، ثم إنهم حرقوا الجامع وتركوها بلاقع ، ثم استصحب الملك الطاهر بسوء نية ، ورحل وحبسه في مدينة سلطانية ، وحبس معه من أمرائه : الأمير ركن الدين ، وعز الدين السليماني ، والتونبغا ، وضياء الدين ، وضيق عليهم ، وقطع عن أهله خبره فلم يعرفوا عجره وبجره .

ثم قصد تيمور التوجه إلى دشت قيچاق ، ومكث الملك الطاهر سنة ولا يدري أحد خبره في يقظة ولا سِنة ، إلى أن وفدت المملكة الكبرى إلى سلطانية وفكت قيوده وقيود أمرائه ، وشرطت معه أن يدخل في رضا تيمور وطاعته ، وكان ذلك من مكائد تيمور وبإشارته ، ثم عاد تيمور إلى الدشت إلى سلطانية ، ثم توجه إلى همدان واستدعى بالملك الطاهر من سلطانية بإكرام تام ، وتلقاه تيمور باحترام ، وقبله في وجهه مراراً ، واعتذر إليه اعتذاراً ، وقال : لا شك أنك ولي ذو كرامات وقد شاهدت منك بعض العلامات . وأضافه ستة أيام وخلع عليه خلع الملوك العظام ، وأعطاه ستة وخمسين منشوراً كل منشور بتولية بلد وأن لا ينازعه فيها أحد ، أول ذلك : الرها ، إلى آخر دياربكر ، إلى حدود أذربيجان وأرمينية ، وهذا وإن كان في الظاهر كالإكرام ولكن غرضه إلقاء العداوة بين مجاوريه حتى لا يجد من كثرة الأعداء إلا الالتجاء به ليتسلم منه القلعة ، ثم شرط عليه أنه للمطالبة جاء إليه ، ثم عانقه وودعه ، ووصل خبره إلى القبائل والعشائر ، وكثرت

البشائر ، وابتهج الناس بقدومه وخرجوا لاستقباله ، فدخل ماردين سنة ٧٩٨ في شهر شوال ، فتوجه أولاً إلى مدرسة الحسامية وزار والده وأمواته وعزم على ترك التخت المنيف والتوجه إلى الحجاز الشريف ، فلم يتركوه فصعد أيضاً إلى سرير سلطنته ، واستقر في تخت مملكته . ثم إن تيمور توجه لاستخلاص البلاد كالهند والكرج والأعجام وحلب وحماة والشام ، وفعل بهم ما فعل - كما سبق - ، فلما عاد من الشام وقدم على ماردين أرسل رسولاً إلى الملك الطاهر صحبة كتاب منظوم ، ومطلعه قوله :

سلام عليكم والعهود بحالها

وقد بلغ الأشواق مني كمالها

فلم يلتفت الملك إلى كلامه ، ولا ظفر إلى نيل مرامه ، لأنه كان قد آذاه أول أمره ، وقد قيل : من جرَّب المجرب حلت به الندامة . ولكن أرسل إليه قاصداً من بعض الخدم يدعى : الحاج محمود بن خاص بك ومعه الهدايا ، واعتذر عن الحضور بعدة أمور ، وأرسل له كتاباً منظوماً وخطابه موافق لجوابه وهو قوله :

فشوقي إليكم زائد الوصف حدَّه

ولكن تخاف النفس مما جرى لها

فلم يلتفت تيمور إلى هذا الكلام وأخذ يلوم نفسه بأنواع الملام ، إذ لم يظفر منه بمرام ولا حيف ، فكان كمن ضيعت اللبن في الصيف ، فضرب تيمور خيامه بدنيسر يوم الاثنين عاشر شهر رمضان سنة ٨٠٣ ، واستعد أهل ماردين للمحاصرة وأخلوا المدينة وانتقلوا إلى القلعة ، فحاصر تيمور القلعة ، ولم يكن حولها مكان للقتال ولا لنصب المجانيق مجال فعول على نقبها بالمعاول والفؤوس ، واستعان على ذلك بالمقاول والرؤوس وحاشا ذيل عصمتها أن يسام فتقاً ؛ لأنها قد أعجزت الفحول لكونها رتقاً ، فلا زالت المعاول تفل والمرازب تكل :

كـــان معولهم فـــي نقب أسفلها

منقار طير على صلد مـــن الحجر

أو عذل ذي حسد صباً به صمم

أو غمز عين معنىً فـــاقـــد البصر

فنقبوا عشرة أيام فلم يظفروا بأدنـــى مرام ولما مُنـــي منها بالحرمان ويئس منـها كما يئس الشيطان ، ستـــر عيبه وأبقى الهيبة وخرب المدينة وأسوارها ومحا رسومها وآثارها وهدم جوامعها ومآذنَها ومنارها ، وفك أساسها وأحجارها ، وتوجه نحـــــو بغداد يوم الخميس العشرين من رمضان وكان خامس أيار ، وخرب نصيبين ، ورعى مغلاتِها وهدم سورها ومحا آياتِها ، وكان أهلها قد انهزموا قبـــــل قدومـــه ، ثم إلى الموصل ، ثم إلى بغداد ، وقتل أهلها عموماً ، وبنى من الرؤوس نحو مائة مئذنـــة ، ثم رجع إلى قرهباغ وراسل سلطان الروم يلدرم بايزيد ـ كما مضى في ترجمته ـ .

ثم إن الملك الطاهر عزم على تعمير ما كان قد هدمه تـــيمور من ماردين ، فعمَّر بعض الجوامع والمساجد ، وبعض الحمامي والبيوت ، فلبى دعوة الحي الـــــــذي لا يموت ، وعاش من بعد ذهاب تـــيمور ست سنـــين .

توفي الملك الطاهر عيسى بن الملك داود سنة ٨٠٩ ، وكان ملكه (٣١) سـنة ، ودفن بمدرسته .

ومن بعده ابن عمه :

## الملك الصالح شهاب الدين بن الملك السعيد أسكندر بن الملك الصالح الأكبر :

وكان صوَّاماً قوَّاماً عاقلاً عالماً شجاعاً جواداً كريماً ، فلما تولى الســلطنة بـــذل مقدوره في تعمير مدينة ماردين ، وبنى بعض البيوت منها ولم يتـــيسر له الإتمـــام ، وكان شفيقاً على الرعية ، ويعظم السادات والعلماء ، ويكرم المساكين والفقـــراء ،

وكان يقصده الفقراء والفضلاء من كل مكان ، وقد مدحه الشعراء والبلغاء ، فمن ذلك الصفي الحلي (٨٥) ، مدحه بقصيدة طنانة وهي قوله :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا
و لا ينال العلى من قدم الحذرا

ومن أراد العلى صفواً بلا تعب
قضى ولم يقض من إدراكه وطرا

لا بد للشهد من نحل يحوم به
لا يجتني الشهد من لم يحمل الضررا

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ
لا يقرب الورد حتى يعرف الشجرا

وأعز الناس عقلاً من إذا نظرت
عيناه أمراً غدا بالغير معتبرا

إلى أن قال:

كصالح الملك المرهوب سطوته
فلو توعد قلب الدهر لانفطرا

خاض العجاجة عرياناً فما ارتفعت
حتى أتى بدم الأبطال مؤتزرا

(٨٥) هو من أشهر الشعراء في عصر المماليك وأحسنهم شعراً ، ولد في مدينة الحلة سنة ٦٧٧ هـ ونشأ فيها ، ثم اتصل بملوك الولة الأرتقية في ماردين ومدحهم بقصائد كثيرة ، زار القاهرة سنة ٧٢٧ هـ ومدح الناصر بن قلاوون ، ثم عاد إلى ماردين فبغداد ، كانت وفاته في بغداد سنة ٧٥٠ هـ ، وهو من الشعراء الكثرين في النظم . وانظر ( المنهاج في الأدب العربي وتاريخه ) للدكتور عمر فروخ ( ٩٣/١ ) ط ١٩٦٠ ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت .

من كل بيض قد أجرى الفرند به

ماء الردى فلو استقطرته قــطرا

إلى أن قال:

يكــاد يقرأ مــن عنوان هــمــتــه

ما فــي صحائف ظهر الغيب قد سطرا

كالبحر والدهر فــي يومي نــدا وردا

والليث والغيث فــي يومي وغى وقرا

مــا جــاد للناس إلا قبل مــا سألوا

ولا عــفــا قــط إلا بــعــدما قدرا

لامــوه فــي بذله الأموال قلت لهم :

هــل تقدر السحب ألاّ تــرسل المطرا

مــن آل أرتــقــة المشهور ذكرهــم

إذ كــان كــالمسك أن أخفيته ظهرا

الــحــامــلــيــن من الخطّيّ أطوله

والــنــاقــلين من الأسياف ما قصرا

لــم يــرحلوا من حما أرض إذا نزلوا

إلا وأبــقــوا مــن جــودهــم أثرا

لله در ســمــا مــاردين من فلك

فــكــلــمــا غاب نجم أطلعت قمرا

وافتتح الملك الصالح ما كان قد عصى عليه من البلاد وكان كثير الأعـداء ، ولم يجد فرصة لتتميم عمارة ماردين لكثرة ما حدث له من الفتــن والحروب ، فبينمــا هو في أمان من الزمان إذ بقره يوسف بن قــره محمد التركمانــي ويقــال لهــذه الطائفة : قرەقوينلية ، كما سيأتــي ذكرهم من قريب ـ إن شاء الله تعالى ـ ، وأمــا

قره يوسف المذكور فإنه لما استولى على الممالك وانتهت النوبة إلى ماردين تجهز الملك صالح إلى لقائه فوقع بين الفريقين حرب عظيم فانكسر جيش قره يوسف وقتل من عسكره خلق كثير ، وانهزم نحو الموصل ثم جمع جيشه وعاد ثانياً ، ووقع بين الفريقين حرب عظيم فانكسر جيش ماردين ، وتسلط عليهم قره يوسف وعسكره من نصيبين إلى أن وصلوا دربند البُوَيرة ، وأحاط بهم في ذلك المكان الضيق ولم يزل يقتل ويأسر حتى بقي من عسكر ماردين شئ قليل ، وانهزم الملك الصالح وصعد القلعة وتحصن بها ، ولم يزل قره يوسف محاصراً لماردين سنتين كاملتين ، ولم يأت للملك الصالح مدد من أحد ؛ لأن كل ذي نعمة محسود ، واستولى المذكور على ما حول ماردين من القرى والبلاد كآمد ومفارقين والحصن والصور ورأس العين ونحو ذلك ، ولما قتل ما عند الملك الصالح من العسكر ولم يبق عنده سوى العجزة والضعفة من العشائر ، ونفد ما كان عنده من الذخائر ، اضطر إلى المصالحة والتسليم ، وكان ذلك بتقدير العزيز العليم ، فأرسل أحد خواصه إلى قره يوسف التركمان لطلب الصلح والأمان ، فلما وصل الرسول إلى قره يوسف وتمثل بين يديه ، فأعلمه بأنه قاصد من الملك الصالح لطلب الصلح فهش له وأجله وترحب به ، فسلم الرسول الكتاب والهدايا ، واطلع على ما في الكتاب وجملة ما فيه أنه قد حللت هذه الأرض وما خشيت يوم العرض وقتلت رجالنا ونهبت أموالنا وفعلت فعل من غدر وعق ، وما لك في أرضنا من حق ، وها نحن قد فوضنا أمرنا إليك ، وبالله تعالى نستعين عليك ، فإن أردت قلعة ماردين فلا تك من الماكرين ، وأعقد بيني وبينك الصلح والمصافات وكل ما مضى مضى وفات ، على شرط أن تزوجني بإحدى بناتك ، وأكون آمناً من هلكاتك ، وتسلمني بلدة الموصل عوضاً عن قلعة ماردين ، وتحلف لي أن لا تغدر ولا تكن من الخائنين ، فإن رضيت بهذا التقسيم رضيت أنا بالتسليم ، وإن لم ترض بما ذكرنا فكلما مكرتم مكرنا ، فعند ذلك رضي قره يوسف بهذا الكلام وملكه

مدينة الموصل ما دام ، وزوجه بإحدى بناته ؛ ليكون آمناً من سطواته ، وحلف بذلك أيماناً رائقة ، وعاهده على الموافقة ، ونزل الملك الصالح عن كرسي المملكة [٨٦] ، ومال وأنشد بلسان الحال :

إن يكن مني دنا أجلي
آه وا ذلي و وا خجلي
كانت الدنيا تُقادُ لنا
وأرى ولَّت على عجلِ
كم لنا في الكون عارفة
سبقت في الأعصر الأولِ
ما أتانا قاصد و غدا
عائداً من خيبة الأملِ
كم بذلت الروح مجتهداً
ونفيت النوم عن مُقَلي
وصعدت التخت في شرف
ونزلت اليوم من وجلِ
هذه الدنيا لماكرة
ما صفت يوماً إلى رجلِ

ثم إنَّ قره يوسف سمَّ الملك صالحاً وزوجته التي هي بنته ، وأرسلهما إلى الموصل ، ومكثا في الموصل ثلاثة أيام وماتا في نهار واحد سنة ٨١٢ ، وكان ملكه ( ٣ ) سنوات ، وبه كان ختام الدولة الأرتقية ، وكان تسليم القلعة إلى قره

(٨٦) ينقل المحامي عباس العزاوي في تاريخ العراق بين احتلالين ( ٢٧/٣ ) ، ط بغداد ١٩٥٥ ، عن ( كنه الأخبار ) أن قره محمد القرهقوينلي طلب من الملك الظاهر ( الطاهر ) بنته ليتزوجها فلم يوافق فساق عليه العساكر ، ثم تصالح معه على أن يزوجه ابنة أخيه .

يوسف سنة ٨١٢ وذلك في يوم الثلاثاء الرابع من شهر صفر ، والله تعالى أعلم . ثم إن الملك صالحاً خلف ثلاثة أولاد : ملك موسى ، وملك محمود ، وملك عبد الحي ، سكنوا سنجار واتخذوها موطناً ، وكانت إذ ذاك مدينة عامرة ، وهموا بطلب التخت والسلطنة فلم يساعدهم الدهر حتى توفوا إلى رحمة الله تعالى ، ثم خلف الملك موسى ولدين ، أحدهما الملك محمود ، والثاني الملك منصور ، وتوفي الملك منصور ، وعاش الملك محمود وخرج من سنجار وصار من أهل الخيام والوبر ، وكان عنده من أهل الوبر مقدار ثلاثة آلاف بيت ، إلى أن توفي سنة ٨٢٤ .

وكان ظهور الدولة الأرتقية سنة ٤٦٩ ، وانقراضهم بالملك الصالح سنة ٨١٢ ، وكانت مدة ملكهم وحكمهم بماردين ٣٤٣ سنة ، والله تعالى أعلم وأحكم .

# فصل
## في ذكر دولة الملوك القرهقوينلية

وهم طائفة التركمان ومسكنهم كان بنواحي الموصل وأربل وشهرزور وتلك الأطراف ، أولهم :

### قره محمد التركمان :

وقره محمد كان من خدام السلطان أحمد بن السلطان أويس الجلائري صاحب بغداد ـ السابق ذكره ـ فجعله أميراً من جهته على التركمان لكونه منهم ، ولم يزل يحسن إليه حتى قويت شوكته وعلا صيته إلى أن توفي قره محمد سنة ٧٩٥ [٨٧] ، ومن بعده فوض السلطان أحمد إمارة التركمان إلى ولده :

### قره يوسف بن قره محمد :

وكان قره يوسف من أهل الشجاعة والسخاء ، فاجتمع إليه خلق كثير حتى أن السلطان أحمد كان يخافه ، فبينما قره يوسف في أمان من الزمان إذ ظهر تيمور لنك واستولى على الممالك حتى قرب من بغداد ، فهرب منه السلطان أحمد إلى قره يوسف ، فتبعه تيمور إلى الموصل ، فتوجه هو وقره يوسف إلى سلطان الروم يلدرم بايزيد ـ كما تقدم ـ فهرب السلطان أحمد وقره يوسف إلى مصر من تيمور حتى انصرف تيمور من هذه البلاد ، فعادا إلى بلادهما ، ويقال : إن قره يوسف لما عاد من مصر إلى بلاده خرج عليه الروم وغيرهم ، وأرادوا قتله في سبعة

(٨٧) وقيل قتل سنة ٧٩٢ هـ ـ ١٣٩٠ م ، وانظر تاريخ العراق بين احتلالين للمحامي عباس العزاروي ( ٢٧/٣ ) .

عشر موضعاً ، فقاتلهم وغلب عليهم ، وخرج من بينهم سالماً منصوراً ولم يظفر أحد به ، وكان معه إذ ذاك شرذمة قليلة من التركمان ، فلما عاد إلى بلاده ومضى على ذلك شهور وأعوام وتوفي تيمور وحكم ابنه شاهرخ ، فوقع بين قره يوسف والسلطان أحمد الجلائري صاحب بغداد عداوة وجرى بينهما حروب كثيرة وامتدت العداوة إلى أن توفي السلطان أحمد سنة ٨١٣ (٨٨) ، فاحتوى حينئذ قره يوسف على مدينة بغداد ، وادعى السلطنة وكان الخطباء تخطب بذكره ، ونقشوا اسمه على الدراهم والدنانير ، ثم إنه استولى على البصرة والكوفة وممالك الكردستان ، وتوجه نحو ماردين ، وانتزعها من يد الملك الصالح ، ولم يكن بها معمور سوى القلعة وبعض البيوت ؛ لأنها كانت خرابة على عهد تيمور - كما تقدم - ، ثم استولى قره يوسف على ممالك دياربكر وأذربيجان والأرمن وعلى ممالك الإيران بأسرها ، واحتوى على تبريز واتخذها دار ملكه ، ولم يزل يرسل نوابه إلى ماردين ودياربكر وغيرهما من الممالك ، ثم إن شاهرخ بن تيمور لنك جهز العساكر ووجهها نحو مدينة تبريز لمحاربة قره يوسف وانتزع الملك من يده ، وجعل أمير الجيش الله داد ، وكان الله داد من وزراء والده تيمور ، فلما وصل الله داد إلى تبريز خرج لملاقاته قره يوسف ووقع بين الفريقين حرب عظيم ، فانكسر جيش الله داد وقتل خلق كثير من عسكره فاتصل الخبر بسلطان شاهرخ فتجهز بنفسه لمقاتلة قره يوسف ، وخرج من سمرقند ، فتوجه قره يوسف أيضاً نحو عراق العجم ، ووقع بين الفريقين حرب عظيم ، فانكسر جيش قره يوسف وانهزم المذكور ، فاقتفى شاهرخ أثره حتى التقى به على مدينة أوجان من ممالك عراق العجم ، ووقع بين الفريقين حرب وضرب ، وانكسر أيضاً عسكر قره يوسف ، وقتل قره يوسف في تلك المعركة ، واحتوى شاهرخ على أمواله

(٨٨) بل قتل بيد القرهقوينليين في ربيع الآخر من سنة ٨١٣ هـ ١٤١٠ م ، وانظر تاريخ العراق بين بين احتلالين للمحامي عباس العزاوي ( ٢/٣٠٣ ) .

وخزائنه ، وألقاه ميتاً عند باب الخيمة ثلاثة أيام عرياناً ليراه الخلق ، وذلك سنة ٨٣٩ [٨٩] ، وكان ملكه (٢٦) سنة ، ومن بعده :

## الأمير أسكندر بن قره يوسف :

وكان قد خلف قره يوسف ولدين [٩٠] أحدهما : الأمير أسكندر ، والثاني : الأمير جهانشاه ، فاتفقا على أخذ الثأر من شاهرخ ، وتوجها لمحاربته ، فخرج إليهما شاهرخ وعظم بينهما الحرب والطعان ، فوقعت الهزيمة على عسكر أسكندر وجهانشاه ، فاقتفى أثرهما شاهرخ ، وأدركهما على مدينة أرجيش من بلاد العجم [٩١] ، ووقع بينهما حرب عظيم ، فإنكسر جيش شاهرخ ، وعاد أسكندر وجهانشاه إلى مدينة تبريز ، وصار لهما صيت بين الناس ، وما كان اتفاقهما إلا أيام قليلة إذ وقع بين أسكندر وأخيه جهانشاه بغضاء وعداوة ، كما قيل :

وتشتت الأحباب في آرائهم

سبب لجمع خواطر الأعداء

فانحرف جهانشاه [٩٢] من أخيه وتوجه نحو شاهرخ بن تيمور ووافقه ، فبش به وأكرمه وعظمه ووعده بالإكرام الوافر ، وأن يقتطعه البلاد التي كانت تحت

---

(٨٩) يرى كثير من المؤرخين أنه مات موتاً طبيعياً ، وينقل الأستاذ عباس العزاوي عن عدة مصادر أن وفاته كانت في يوم الخميس السابع من ذي القعدة من سنة ٨٢٣ هـ ١٤٢٠ م ، وقد دفن في أرجيش ، وكانت مدة سلطنته نحو ( ١٤ ) سنة ، وكان قد ناهز ( ٦٥ ) عاماً ، راجع : تاريخ العراق بين احتلالين ( ٣/٥٦- ٦١ ) .

(٩٠) في ( تاريخ العراق ٣/٥٧ ) : ترك من الأبناء : پير بوداق ـ وقد مات قبل والده ـ والأمير أسكندر ، وميرزا جهانشاه ، والأمير شاه محمد ، والأمير اسپان ، والأمير أبو سعيد .

(٩١) بل هي مدينة من مدن كردستان تقع شمال بحيرة وان .

(٩٢) في تاريخ العراق بين احتلالين ( ٣/٧٩ ) وكان قد انحرف عنه أخوه أبو سعيد أيضاً ، وكان شاهرخ قد أقطعه سنة ٨٣٣ هـ أذربيجان ولكن أخاه أسكندر ظفر به وقتله فكانت مدة ولايته نحو سنة .

حكم أبيه قره يوسف ، ولكن على شرط أن يقتل أخاه الأمير أسكندر ، فرضي جهانشاه بالمشروط وتوجه بالعساكر لمحاربة أخيه أسكندر ، فانتقل أسكندر من تبريز إلى قلعة حصينة من بلاد أذربيجان تسمى قلعة آلالنجق وتحصن بها حتى قدوم جهانشاه ، كما قيل : الأقارب كالعقارب ، وأحاط بالقلعة من كل جانب ولم يجد سبيلاً إلى الوصول إليه ، وأقام على محاصرتها مدة وعجز عنها وكاد أن يرحل ، ثم إن جهانشاه جدد فكره وأبدى مكره فراسل الغلام قباد ، وقباد كان عبداً حبشياً يهوى جارية حبشية من جواري مولاه أسكندر [٩٣] ، وتعلق قلبه بها كقيس بليلى ، وكلما كان يخطبها من مولاه أسكندر يمنعه ويضربه بالسوط ، وكان لجهانشاه اطلاع بأمرهما ، فراسل قباد وقال : إن قتلت مولاك أسكندر زوجتك الجارية التي تَهواها . وكان قباد لا يفارق مولاه في يقظة ولا رقاد ، فوجد الفرصة على مولاه أسكندر ، فقتله وذهب برأسه إلى جهانشاه ، فقتل قباد في الحال ، وندم على أخيه ندامة الكُسَعي لما استبان النهار ، أو الفرزدق حين أبان النوار .

توفي الأمير أسكندر مقتولاً سنة ٨٤١ ، ومدة ملكه سنتان ، ومن بعده أخوه :

## ميرزا جهانشاه بن قره يوسف :

فإنه لما طوعت له نفسه قتل أخيه وقتله ، ولاّه شاهرخ على ممالك أذربيجان ودياربكر وماردين نيابة عنه إلى أن توفي شاهرخ سنة ٨٥٠ وحكم ولده أولغ بك ، فقويت شوكة جهانشاه بن قره يوسف ، واستولى على بغداد والبصرة وكرمان وفارس ، وطمع باستخلاص سمرقند من يد أولغ بك ، فتوجه بالعساكر نحو

(٩٣) ينقل الأستاذ عباس العزاوي ( تاريخ العراق ٨٧/٣ ) عن ( جامع الدول ) أن قباد هذا كان ابناً للأمير أسكندر وكان يهوى إحدى حظيات والده واسمها ليلى فدفعه ذلك إلى قتل والده ليلة الأحد ٢٥ شوال ٨٤١ هـ ١٤٣٣ م ، فظفر به عمه جهانشاه وقتله قصاصاً . وكانت مدة ملك الأسكندر ( ١٦ ) سنة .

عراق العجم ، فبينما هو في أثناء الطريق وإذا بالأخبار قد اتصلت إليه بأن ولـــده حسن علي ميرزا قد استولى على دار ملكه تبريز ، فعاد جهانشاه من وقته وســاعته إلى تبريز ووقع بينه وبين ولده حسن علي محاربات ، فقبض على ولـــده المذكـــور وحبسه ، ثم إن جهانشاه قد فوض حكومة ممالك العراق ومـــاردين وديـــاربكر إلى ولده پيـربداق ومضى على ذلك مدة إذ عصى پيـربداق على والده جهانشـــاه ، فتوجه جهانشاه نحو العراق فتحصن پيـربداق ببغداد فحاصره سنة ونصـــف ســـنة حتى قبض على پيـربداق وقتله سنة ٨٧٠ ، وعاد إلى تبريز ، ثم إن جهانشاه وقـــع بينه وبين حسن الطويل الآق قوينلي عداوة وبغضاء ، وكانت عداوة القرهقوينليـــة والآق قوينلية ممتدة قديمة لا يصفو لـــها كدر ، كما قيل :

ولم أرَ في الخطوبِ أشدَّ بأساً

وأقوى مِـــنْ مُعاداةِ الرجالِ

وحسن الطويل كان حاكماً بدياربكر ، تلقَّى الحكومة بـــها عن والده علي بـك عن جده قره عثمان ، إلا أن حسن الطويل وآباءه كانوا يتولون حكومة ديـــاربكر عن تـــيمور ، ثم عن ولده شاهرخ ، ولما توفي شاهرخ واستولى جهانشـــاه علـــى الممالك كان يتولاها حسن الطويل نـــيابة عنه إلا أن نـــيابته كانت بـــين الطاعـــة والعصيان ، ثم إن جهانشاه القرهقوينلي أراد عزل نائبه حسن الطويل الآق قوينلـــي فعصى عن العزل ، فتوجه إليه جهانشاه بخمسين ألف مقاتل ، فلم يكـــن لحســـن الطويل قدرة على المقابلة والمقاتلة ، فجعل ينهزم إلى ضواحي خربوط ، وأخرى بـــين الجبال ، وأخرى برية ماردين ، حتى نفدت ذخائر جهانشاه وتفرق غالب عســـاكره مشقة وجوعاً ، ولم يبق عنده سوى القليل ، فوجد حسن الطويل الفرصة على حـــين غفلة وهجم على عسكر جهانشاه وقتله وصفى الزمان له ، وذلك ســـنة ٨٧٢ ،

وكـــان ملكه (٣١) سنة [٩٤] ، وبـــه كـــان انقراض دولة القرهقوينلية ، وكـــان ملكهم ( ٧٠ ) سنة ، وانتقلت إلى الآق قوينلية .

(٩٤) وكان قد قارب السبعين ، وترك من الأولاد : پيـر بوداق ، وحسن علي ، وأبو القاســم ، وفرخزاد . فخلفه ابنه حسن علي فتوجه إليه حسن بك الطويل في صفـــر ســـنة ٨٧٣ بجيشـــه فانـــكـــسر حـــســـن علي ولما تيقن أنه مقبوض قتل نفسه . و انظر تاريخ العراق بين احتلالـين ( ١٨٦/٣ ) .

# فصل
## في ذكر دولة الآق قوينلية

أولهم قره عثمان :

وهو أيضاً من طائفة التركمان ، وكان من أمراء تيمور لنك ، وذلك أن تيمور لما عاد من قتال الروم وفوض الممالك لأمنائه وجه حكومة دياربكر لأمير يدعى قره عثمان وهو من تركمان الآق قوين ، والتركمان على قسمين : القره قوين ، وقد مر ذكرهم ، والآق قوين ، وهم المذكورون في هذا الفصل .

وكان قره عثمان يحكم بدياربكر على عهد تيمور إلى أن توفي قره عثمان في أيام شاهرخ بن تيمور لنك ، فوجه شاهرخ حكومة دياربكر لعلي بك بن قره عثمان ، ثم توفي علي بك وخلف ولدين : حسن پادشاه الطويل ، وقاسم پادشاه ، فوجه شاهرخ حكومة دياربكر للولد الأكبر حسن الطويل ، ولما وقع الحرب بين جهانشاه وحسن وقتل جهانشاه ، استولى حسن الطويل على ممالكه وتوجه نحو تبريز واتخذها دار ملكه ، وخطب الخطباء بذكره ، وسكوا الدراهم والدنانير باسمه ، واستقل بالملك سنة ٨٧٢ ، وكان إذ ذاك يتولى تخت تيمور حفيده أبو سعيد بن شاهرخ ، فأخذته الغيرة التيمورية وتوجه لاستخلاص الممالك من يد السلطان حسن بثلاثين ألف مقاتل ، فتفكر حسن پادشاه في أمره وأراد حُسنَ المداراة مع أبي سعيد مراعاة للحقوق القديمة ؛ لأن تيمور جد أبي سعيد هو ولي نعمة قره عثمان جد حسن پادشاه ، فأحضر من الهدايا الملوكية ، والمنح السلطانية ،

وأرسلها مع أمه أم الخير خاتون بنت الملك داود بن الملك صالح الأرتقي . فلما وصلت أم الخير إلى أبي سعيد أمر بضربها وطردها عن بابه ، ورد إليها الهدايا فردت خائبة بالأمل .

ثم أرسل حسن پادشاه رسولاً إلى أبي سعيد وطلب منه العفو والأمان ، وأن يهبه تبريز فقط وممالك أذربيجان ، فلم يرض أبو سعيد ومزَّق الكتاب ، وحلَّق محاسن الرسول وطرده فعاد إلى حسن پادشاه ، فعند ذلك توجه حسن پادشاه باثني عشر ألف مقاتل نحو أبي سعيد ، فالتقيا بضواحي أردبيل ، وكان أبو سعيد قد ضرب خيامه بواد منخفض ، وليس للوادي سوى طريقين ، إذ قدم عليه حسن پادشاه وسدَّ عليه ذينك الطريقين ، ولم يجد أبو سعيد نفقاً في الأرض ولا سلماً في السماء ، ومكث في المحاصرة أربعين يوماً حتى أكل عسكره لحوم الدواب ، وكاد أن يتفرق عنه الأصحاب ، فاضطر أبو سعيد إلى المصالحة ، كما قيل :

وكم من يدٍ قبَّلتُها عن ضرورةٍ
قد أتمنَّى قطعَها لو أتمكَّنُ
ولكنْ على حلوِ الزمان ومُرِّهِ
أدافع عني بالتي هي أحسنُ

وأرسل هو أيضاً أمه إلى سلطان حسن ، وقالت : الصلح خير وحسن ، لما أيقن بانقلاب الزمان ، وكما تدين تدان :

لا تُهنِ الفقيرَ علَّك أن
تركعَ يوماً والدهرُ قدْ رفعه

فرضي حسن پادشاه بالصلح ، وأكرم أم أبي سعيد وطيب قلبها ، وكان الشيخ جنيد الآتي ذكره حاضر المجلس فلم يرض بالصلح وردَّ أم أبي سعيد بعنف وزجر ، فرجعت إلى ولدها أبي سعيد مأيوسة باكية ، ولم يزل أمراء أبي سعيد ينهزم واحد إثر واحد حتى انفل عسكر أبي سعيد فضاقت الأرض بأبي

سعيد ووجد الهزيمة غنيمة ، وانهزم فتبعه زينل ميرزا بن حسن الطويل فقبض عليه وأحضره بين يدي أبيه ، فقام له وأكرمه وبجله ، وكان يريد عقد الصلح معه ، فأوقع بعض أهل النفاق بينهما الشقاق وقتله سنة ٨٧٤ .

ثم توجه حسن پادشاه نحو ممالك العراق ، وافتتحها ، وعاد إلى تبريز ، وجلس على السرير العزيز ، ثم إنه تذكر بلاده وأوطانه ، وعزم على أن يفيض عليها بره وإحسانه ، كما قيل :

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئْتَ مِنَ الهوى
ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ في الأرضِ يَألَفهُ الفتَى
وَحَنينُهُ أبَداً لأولَ منْزِلِ [(٩٥)]

ففوض حكومة دياربكر إلى أخيه قاسم پادشاه وأمره بعمارتِها ؛ لأنَّها كانت خرابة من عهد تيمور ولم يبق بِها سوى القلعة ـ كما مر ـ ولم يتيسر لأحد عمارة ربضها فكانت على حالها ، فنقل إليها من نواحي تبريز وأذربيجان وغيرها نحو ثمانين ألف بيت ، وسار بِهم قاسم پادشاه حتى وصل إلى ماردين ، وشرع بتعمير مساجدها وحماميها وأسواقها وبيوتِها وقراها حتى عمَّر المدينة ونظمها على أحسن النظام ، وكذلك القرى ، وعمَّر بِها نحو ألفي قرية ، ولم يزل قاسم پادشاه متردداً إلى ماردين ودياربكر ، تارة يسكن آمد ويقيم نائباً على ماردين ابن أخته إبراهيم بك ، وتارة ينتقل إلى ماردين ويقيم إبراهيم بك على آمد مقامه ، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى سنة ٩١١ ، وكان ملكه بماردين ٣٧ سنة ، ودفن بمدرسته التي أنشأها خارج ماردين ، وبنى أيضاً بآمد جامعاً .

---

(٩٥) القائل هو الشاعر العباسي أبو تمام الطائي من قصيدة مطلعها :

البين جرعني نقيع الحنظل     والبين أثكلني وإن لم أثكل

وأما ابن أخته إبراهيم بك فإنه عمَّر بآمد جامعاً وهو معروف إلى زماننا هذا بجامع إبراهيم بك ، وعيَّنَ له من الأوقاف والأرزاق ، وكذلك بنى بماردين جامعاً لطيفاً ويعرف بجامع التكية ، وإلى جانبه زاوية ، وعمَّرت زوجته خديجة خاتون إلى جانب الجامع مدرسة فاخرة تعرف بالخاتونية ، ويقال : إنَّه لما فرغ من عمارة الجامع والمدرسة وعيَّن لهما من القرى والوظائف والأرزاق اختار لتولية الجامع المدرسة والزاوية أحد أجداد الناسخ الفقير وجعله إماماً وخطيباً ومتولياً على الزاوية والجامع ، وجعله متولياً ومدرساً على المدرسة ، وجدنا الأعلى كان يسمى الحاج عبد القادر ، ثم توفي عبد القادر وانتقلت هذه الوظائف إلى ولده الحاج محمد زين العابدين ، ثم إلى ولده السيد عمر ، ثم إلى ولده محمد ، ثم إلى ولده إبراهيم ، ثم إلى ولده الحاج عمر ، ثم إلى ولده محمد ، ثم إلى ولده عمر ، وهو والدي وسبب حياتي ، رحمة الله عليهم أجمعين ، ولم تزل هذه الوظائف منتقلة إلينا إلى زماننا هذا ، أعني سنة ١٢٤٠ ، وبِها نذكر ونعرف فيقال في أحدنا : فلان بن خطيب التكية كما هو المشهور وعلى الألسنة مذكور ، والله تعالى أعلم وأحكم .

ثم إن حسن پادشاه لما قتل أبا سعيد وصفت له الممالك استولى على ممالك ما وراء النهر ، وكرمان ، وأذربيجان ، ودياربكر ، وماردين ، والعراق ، ثم إنه طمع باستخلاص ممالك الروم في أيام السلطان محمد الفاتح ، فأرسل المذكور إليه وزيره حسن پاشا ووقع بين الفريقين حرب عظيم فانكسر جيش حسن پادشا الطويل ، وعاد إلى تبريز سنة ٨٧٧ ، توفي السلطان حسن سنة ٨٨٢ ومدة ملكه (١٠) سنوات . ومن بعده ولده :

خليل ميرزا :

فإنه لما مات والده حسن الطويل جلس في مكانه بتبريز ، ثم خلعوه عن السلطنة وأرادوا تقديم عمه قاسم پادشاه بن علي بك فأبى عن السلطنة ، وقنع بحكومة

دياربكر وماردين وما حولهما ، ثم قدموا مكانه أخاه يعقوب ميرزا بن حسن پادشـاه توفي مسموماً سنة ٨٨٥ ، ومدة ملكه (٣) سنوات [٩٦] ، ومن بعده [٩٧] :

### بايسنقر مـيـرزا بن يعقوب مـيـرزا :

فلما استولى على السرير أمر بقتل أخيه ميح [٩٨] ميرزا ، ثم عصى عليه ابن عمه رستم ميرزا بن مقصود ميرزا بن حسن پادشاه ، فتوجه إليه بايسنقر بالعسـاكر ، ووقع بينهما حرب عظيم ، فانكسر جيش بايسنقر ، وقبضوا عليه وقتله [٩٩] . ومن بعده :

### رستم ميـرزا :

فبينما هو في أمان من الزمان وإذا بأحمد پادشاه بن أوغولو محمد بن حسن طويل قد أقبل بالعساكر ، وكان المذكور عند سلطان الروم بايزيد وتشـرف بمصاهرتـه وتزوج بابنته ، وكان له ست سنـين عند السلطان بـايزيد ، فأرسـله المذكـور لاستخلاص الممالك من رستم فوقع بينهما الحروب فاتفق أمراء العراق وأذربيجان ، وقبضوا على رستم وسلموه بيد أحمد پادشاه ، فأمر بقتله واستولى مكانه بتبريز سـنة

---

(٩٦) في تاريخ العراق بين احتلالين ( ٣/٢٥٩ ) : قتل السلطان خليل يـوم الأربعـاء ( ١٤ ) ربيع الآخر سنة ٨٨٣ هـ ١٤٧٨ م وكانت سلطنته ستة أشهر ونصف .

(٩٧) في تاريخ العراق بين احتلالين ( ٣/٢٦١ و٢٧٦ ) : حكم بعده يعقوب بك بن حسن بك مـن جمادى الأولى سنة ٨٨٣ حتى وفاته في ١١ صفر من سنة ٨٩٦ هـ ، وكان عمـره ٢٨ سنة ، ثم خلفه ابنه بايسنقر .

(٩٨) كذا في الأصل وفي تاريخ العراق بين احتلالين ( ٣/٢٨٥ ) : مسيح بك ، وفيه : أنه عـم بايسنقر وليس أخاه .

(٩٩) في سنة ٨٩٧ هـ ١٤٩١ م فر بايسنقر من رستم ميرزا وقصد صهره شاه شيروان فصفى الأمر لرستم ميرزا ، وبعد سنة رجع إلى آذربيجان بقصد الاستيلاء عليها فالقي القبض عليه وقتل بعد أن ملك سنة وثمانية أشهر ، وانظر تاريخ العراق بين احتلالين ( ٣/ ٢٨٧ و٢٩٥ ) .

أشهر [١٠٠] ، ثم إن المذكور خرج عليه من أولاد عمه أبيه سلطان ، ووقع بينهما الحروب ، فوقعت الهزيمة على أحمد پادشاه ، وقتل في المعركة سنة ٩٠٣ . ومن بعده :

## سلطان مراد بن يعقوب ميرزا :

فزاحمه ابن عمه محمدي ميرزا ، فانهزم السلطان مراد نحو شيراز ، وجلس مكانه محمدي ميرزا بتبريز ، ثم إن ألوَنْد ميرزا زاحم أخاه محمدي ميرزا على السلطنة ، فانهزم محمدي ميرزا إلى أصفهان ، ثم إن سلطان مراد توجه من شيراز نحو أصفهان ، وقبض على محمدي ميرزا [١٠١] ، ثم توجه نحو تبريز ، ووقع بينه وبين ألوند ميرزا حروب كثيرة ، ثم توسط بينهما بعض الحكام ، وقالوا : الصلح سيد الأحكام ، فاقتسما بينهما الممالك نصفين ، وجعلا ممالك آبائهما بينهما شقين ، فكانت دياربكر وماردين والإيران وأذربيجان لألوند ميرزا ، وعراق العجم وعراق العرب وفارس للسلطان مراد ، وداما في السلطنة إلى أن ظهر عليهما شاه إسماعيل بن الشيخ حيدر سنة ٩٠٥ ، وانتزع الممالك بأسرها من يدهما .

(١٠٠) في تاريخ العراق بين احتلالين ( ٢٩٨/٣ ) : قتل رستم ميرزا في الروم في شهر ذي القعدة سنة ٩٠٢ هـ ١٤٩٥ م .

(١٠١) ثم قتل في أواسط سنة ٩٠٥ هـ ١٤٩٩ م ، وانظر : تاريخ العراق بين احتلالين ( ٣٠٥/٣ ) .

# فصل
## في ذكر خروج شاه إسماعيل

هو إسماعيل بن الشيخ حيدر بن الشيخ جنيد بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ علي بن الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفي الدين الأردبيلي ، والشيخ صفي كان من تلاميذ الإمام الهمام محمد الغزالي ، وقد أخذ عنه العلم ، ثم أخذ عنه المشيخة وآداب السلوك ، جلس في خانقاه المشيخة إلى أن توفي [(١٠٢)] ، ثم انتقلت المشيخة إلى ولده صدر الدين واجتمع إليه المريدون من أهل الطريق إلى أن توفي ، فانتقلت المشيخة إلى ولده الشيخ علي [(١٠٣)] ، ثم إلى الشيخ إبراهيم ، ثم إلى الشيخ جنيد ، واجتمع من المردة عند الشيخ جنيد خلق كثير ، فطمع في الخروج ، وضبط الممالك ، فاستمع بذلك سلطان عصره ميرزا جهانشاه بن قره يوسف - السابق ذكره - فنفاه ومردته عن أردبيل وأخرجه من تلك الأرض فتوجه نحو

---

(١٠٢) كانت وفاته سنة ٧٢٩ هـ ، وهذا يعني أنه لم يأخذ العلم عن الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، ولم يأخذ عنه المشيخة كما يذكر المؤلف ، وإنما أخذ الطريقة عن الغزالي بوسائط ، وانظر التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ، ط ٢ ، ١٩٨٧ م ، المكتب الإسلامي بيروت ، ( ٣٨٥/٨ ) ويذكر الأستاذ عباس العزاوي ( تاريخ العراق ٣٣٣/٣ ) أن صفي الدين توفي في ١٢ محرم ٧٣٥ هـ .

(١٠٣) وهو أول من أبدى ميولاً للتشيع من هذه الأسرة ، وللتفصيل حول أثر الشاه إسماعيل الصفوي في العالم الإسلامي راجع دراسة د. بكر صديق الشريفاني المعنونة بـ ( تركة الشاه إسماعيل الصفوي في العالم الإسلامي ) المنشورة في العددين ( ١٠ و ١١ ) من مجلة ( فەزين ) شتاء وربيع ١٩٩٨ .

دياربكر إلى حسن پادشاه الطويل بن علي بك ـ المار ذكره ـ فأكرمه حسن الطويل غاية الإكرام رغماً لجهانشاه ، كما قيل :

وليسَ لِحُبِّهِ إياهُ هذا
ولكنْ بُغضُ قومٍ آخرينا

لأن عداوة الآق قوينلية والقرهقوينلية كانت قديمة غير منفكة ، ثم إن حسن پادشاه زوج شقيقته الست خديجة من الشيخ جنيد وكريمته الست حليمة لولده الشيخ حيدر ، ومكثوا عنده زماناً فاشتاقوا إلى أوطانهم ، فتوجه الشيخ جنيد والشيخ حيدر بزوجتيهما نحو أردبيل ، فجهزهما حسن الطويل بجهازهما وأرسلهما بإكرام تام وإعزاز واحترام ، ودخلوا أردبيل ، ثم إن الست حليمة ولدت من الشيخ حيدر الشيخ إسماعيل سنة ٨٩٠ [١٠٤] ، ثم توفي الشيخ جنيد فانتقلت المشيخة إلى ولده الشيخ حيدر ، واجتمع إليه الناس ، وعلا صيته وجاهه ، وغيَّر لباسه ولباس مردته لرفع الالتباس بالناس ، فلبس وألبسهم الچوخ الأحمر مضلع الأركان وأضلاع التاج اثنا عشر ، يعني على عدد الأئمة الأثني عشر ، ولقبت مردته بالقزلباش ، ومعنى القزلباش : رأس الأحمر ؛ لكون التاج من الچوخ الأحمر ، وكان الشيخ حيدر على مذهب الشيعة الشنيعة ، ولهذا نسبوا إلى القزلباش ، ثم إن الشيخ حيدر لما كثرت مردته عزم على التوجه لجهة الگرجستان ، فلما مروا على ممالك شروان منعهم حاكمها عن الاجتياز إلى الگرج ، ووقع بين حاكم شروان والشيخ حيدر حرب عظيم بضواحي طبرستان ، فقتل الشيخ حيدر في تلك المقتلة ، ووقعت شهب السيوف على مردته ، وخلف الشيخ حيدر ولدين : شيخ علي وشيخ إسماعيل ، فهم الشيخ علي بأخذ الثأر من حاكم شروان ، ووقع بينهما حرب عظيم ، فقتل الشيخ علي بن الشيخ حيدر أيضاً ، وتفرق عسكره ،

(١٠٤) وقيل بل ولد الشاه إسماعيل سنة ٨٩٢ هـ ١٤٧٨ م وكانت وفاته سنة ٩٣٩ هـ ١٥٢٣ م ، وانظر دراسة الدكتور بكر الشريفاني ، المصدر السابق .

ثم إن الشيخ إسماعيل وأمه الست حليمة بنت حسن الطويل انـهزما إلى لاهجـان من أعمال كيلان ، وأقام بـها ، كما قيل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه

وجاوزه إلـى ما تستطيع

ولم يزل الشيخ إسماعيل سالكاً بطريق المشيخة ، ويُعَلّمُ الناس مذهـب الشـيعة بلاهجان حتى صار مشهوراً في فنه ، واجتمع إليه المردة كأبـيه ، ثم توجه نحو وطنه أردبيل ، وألبس مردته السلاح وصال على حاكم أردبيل وقتله ، ودخلـت تحـت قبضته ثم طمع في الخروج فاستولى على أرزنجان وكيلان وأذربيجان ، ثم توجـه إلى ممالك شروان لأخذ الانتقام ، ووقع بينه وبين حاكم شروان حرب عظيم ، فقتـل حاكم شروان سنة ٩٠٥ ، وقويت شوكة الشيخ إسماعيل ، وألقى الخرقة والتـاج ولبس الحرير والديباج ، ثم توجه نحو تبريز ، واحتوى علـى سـريرها العزيـز ، فانـهزم منه ألوند ميرزا إلى دياربكر وتوفي بـهـا .

وصفت تلك الممالك له وصار يلقب بالشاه بعد المشيخة ، ثم توجـه لعـراق العجم واحتوى عليه ، ثم لعراق العرب واستولى على مدينة بغداد (١٠٥) وهدم قـبر الإمام الأعظم والشيخ عبد القادر الكيلانـي وغيرهما من المساجد ، وقتل خلـق كثير من علماء أهل السنة ، ثم توجه نحو الموصل فـاحتوى عليـها ، ثم إلى بلـدة ماردين واحتوى عليها ، وكان قد توفي سلطانـها قاسم پادشاه سـنة ٩١١ ، ثم احتوى على دياربكر ، وولى على ماردين ودياربكر حاكماً يدعى أوستاجلو أوغلـي محمد خان سنة ٩١٣ .

ثم إن شاه إسماعيل استطال على بعض ممالك الروم واتصل الخبر إلى السـلطان سليم خان بن السلطان بايزيد ، فتوجه لمحاربة الشاه إسماعيل بمائة ألـف مقـاتل ،

---

(١٠٥) كان استيلاؤه على بغداد سنة ٩١٤ هـ ١٥٠٨ م ، وانظر : تـاريخ العـراق بـين احتلالين ( ٣/ ٣١٢) .

وتلاقيا بصحراء چالدران من أعمال أذربيجان فوقعت الهزيمة على شاه إسماعيل ، وقتل من عسكره خمسة آلاف ، ثم إن السلطان سليم نظم أحوال الممالك الإسلامية على أحسن النظام ، وقتل جميع الأمراء الذين كانوا قد ولاهم الشاه إسماعيل على الممالك ، مثل : مير عبد الباقي ، وميرزا سيد شريف ، وسيد محمد كمونه ، ومحمد خان المعروف بأستاجلو أوغلي حاكم ماردين ودياربكر ، ولاله شاملو حسين بك ، وسلطان علي ميرزا ، وپير عمر بك شيره‌چي ، وغيرهم ، وعاد السلطان إلى القسطنطينية أيضاً سنة ٩٢٠ .

ومنذ ذلك اليوم صارت هذه الممالك في قبضة السلاطين العثمانية .

وأما ماردين فإنه كان يأتيها الحكام من قبل الدولة العثمانية ، ويتولاها وزراء ذوو عَلَمَين ، أي طوغين ، إلى أن توجهت حكومتها إلى بغداد سنة ١٠٥٨ ، وأرسلوا إليها ناصف آغا ، ثم أضيفت أيضاً إلى الدولة العثمانية سنة ١٠٧٧ ، وتولاها شيطان [١٠٦] يوسف آغا ، ثم أضيفت إلى بغداد سنة ١١٢٤ ، وحكم بها خليل آغا ، ثم أضيفت أيضاً إلى الدولة وتولاها علي الرضا باشا سنة ١١٤٨ ، ثم أضيفت إلى دياربكر في أيام الوزير محمد باشا ، وتولاها من جهته إلياس آغا سنة ١١٤٨ ، ثم أضيفت أيضاً إلى بغداد وتولاها يوسف آغا سنة ١١٤٨ ، ثم أضيفت أيضاً إلى الدولة وتولاها أوزون بك سنة ١١٦١ ، وذلك من بعد ما توفي أحمد باشا الوزير ببغداد ، ثم أضيفت أيضاً إلى بغداد في أيام سليمان باشا أبو ليلى ، وتولاها توقاتلي عثمان آغا سنة ١١٦٤ ، وهي باقية تحت حكم ولاة بغداد إلى يومنا هذا .

والسبب في إضافتها إلى بغداد أنه لما عصت عشائر سنجار وصاروا يقطعون الطريق عيَّن السلطان لتأديبهم ولاة بغداد وأضاف إليها ماردين ليستعينوا بذخائرها على سنجار ، ولكون سنجار أحد سناجق ماردين .

(١٠٦) كذا في الأصل ولعله تصحيف .

# فصل
# في ذكر حكام ماردين منذ دخلت تحت حكم آل عثمان

سواء كانوا من الدولة العلية ، أو من آمد ، أو من بغداد ، إذ الكل في حكم السلاطين العثمانية .

وقد تقدم حكامها الماضية بحسب الاطلاع حتى استولى الشاه إسماعيل عليها وعلى غيرها من الممالك وانتزعها منه السلطان سليم كما ذكرنا سنة ٩٢٠ ، ولم أطلع على أسماء الحكام الذين حكموا بها من يوم فتحها إلى مائة وعشر سنين ، ومن بعد المائة والعشرة حكم بِها رجل من قبل الدولة يدعى عينتابلي محمد آغا سنة ١٠٣١ ، وحكمه سنة ، ثم حكم سليمان آغا سنة ١٠٣٢ ، وحكمه سنة ، ثم حكم كنعان آغا سنة ١٠٣٣ ، وحكمه سنة ، ثم حكم مامي آغا سنة ١٠٣٤ ، وحكمه سنة ، ثم حكم كچك أحمد آغا ويلقب واي واي سنة ١٠٣٥ ، وحكمه سنة ، وفي أيامه استولى العجم على ماردين ودياربكر ، وأخرجهم المذكور عن هذه الممالك ، ثم تولى حكومة الموصل كما ذكرنا في ترجمة السلطان مراد الرابع فتذكر ! [١٠٧]

ثم حكم عبد الله آغا سنة ١٠٣٦ ، وحكمه سنة ، ثم حكم مصلي آغا سنة ١٠٣٧ ، وحكمه سنة ، ثم حكم جعفر پاشا سنة ١٠٣٨ ، وحكمه سنة ، ثم حكم

(١٠٧) وهو واقع ضمن ما أعرضنا عن تحقيقه من كتاب أم العبر ، فتذكر !

يعقوب پاشا سنة ١٠٣٩ ، وحكم سبع سنين ، وهو الذي ترك السراي الغربي وأنشأ السراي الشرقي الباقي أثره إلى اليوم وذلك سنة ١٠٤٠ ، ثم حكم حسين آغا سنة ١٠٤٦ ، وحكم سنتين ، ثم حكم مرة ثانية يعقوب پاشا سنة ١٠٤٨ ، وحكم سنة ، ثم حكم المطرهچي أحمد آغا سنة ١٠٤٩ ، وحكم ثلاث سنين ، ثم حكم مرة ثالثة يعقوب پاشا سنة ١٠٥١ ، وحكمه سنة ، ثم فرهاد زاده عمر بك سنة ١٠٥٢ ، وحكمه سنة ، ثم حكم مرة ثانية المطرهچي أحمد آغا وذلك سنة ١٠٥٣ ، وحكمه سنة ، ثم حكم السيد سليمان آغا سنة ١٠٥٤ ، وحكمه سنة ، ثم حكم بنى آغا سنة ١٠٥٥ ، وحكمه سنة ، ثم حكم كور حسن آغا سنة ١٠٥٦ ، وحكمه سنة ، ثم حكم محمود آغا سنة ١٠٥٧ ، وحكمه سنة .

ثم أضيفت ماردين إلى بغداد وحكم بها ناصف آغا سنة ١٠٥٨ ، وحكمه سنة ، ثم حكم بكر پاشا سنة ١٠٥٩ ، وحكمه سنة ، ثم حكم ثانية ناصف آغا سنة ١٠٦٠ ، وحكمه سنة ، ثم حكم درويش آغا سنة ١٠٦٢ ، وحكمه سنة ، ثم حكم حاج موسى آغا سنة ١٠٦٣ ، وحكمه سنة ، ثم حكم سياويش آغا سنة ١٠٦٤ ، وحكمه سنة ، ثم حكم سنجارلي مصطفى آغا سنة ١٠٦٥ ، وحكمه سنة ، ثم حكم مرة ثانية سياويش آغا سنة ١٠٦٦ ، وحكمه سنة ، ثم حكم خضر آغا سنة ١٠٦٧ ، وحكمه سنة ، ثم حكم قرهقاش محمد آغا سنة ١٠٦٨ ، وحكمه سنة ، ثم حكم قوجه يوسف آغا سنة ١٠٦٩ ، وحكم سنة ، ثم حكم إبراهيم آغا سنة ١٠٧٠ ، وحكمه ثلاث سنين ، ثم حكم بقّال محمد آغا سنة ١٠٧٣ ، وحكم سنة ، ثم حكم مرة ثانية قوجه يوسف آغا سنة ١٠٧٤ ، وحكمه سنة ، ثم حكم علي بك سنة ١٠٧٥ ، وحكمه سنة ، ثم حكم مرة ثانية بقّال محمد آغا سنة ١٠٧٦ ، وحكمه سنة .

ثم أضيفت ماردين أيضاً إلى الدولة وحكم بها شيطان يوسف آغا سنة ١٠٧٧ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم الآقسقلي عثمان آغا سنة ١٠٧٩ ، وحكمه

سنتان ، ثم حكم فضلي آغا سنة ١٠٨١ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم عبدي آغا سنة ١٠٨٣ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم أصلان محمد آغا سنة ١٠٨٥ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم كدي عثمان آغا سنة ١٠٨٦ ، وحكمه سنة ، ثم حكم حسن آغا سنة ١٠٨٧ ، وحكمه سنة ، ثم حكم جعفر آغا سنة ١٠٨٨ ، وحكمه سنة ، ثم حكم سرخوش محمد آغا سنة ١٠٨٩ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم خليل باشا سنة ١٠٩١ ، وحكمه سنة ، ثم حكم حسن بك سنة ١٠٩٢ ، وحكمه سنة ، ثم حكم أيضاً خليل باشا سنة ١٠٩٣ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم أيضاً حسن بك سنة ١٠٩٥ ، وحكمه ثلاث سنين ، ثم حكم سيد محمد آغا سنة ١٠٩٨ ، وحكمه سنة ، ثم حكم أوزون علي آغا سنة ١٠٩٩ ، وحكمه سنة ، ثم حكم كيكي أحمد آغا سنة ١١٠٠ ، وحكمه سنة ، ثم حكم شيخ أوغلي قاسم آغا سنة ١١٠١ ، وحكمه ثلاث سنين ، ثم حكم مصطفى آغا سنة ١١٠٤ ، وحكم سنة ، ثم حكم كيكي عثمان آغا سنة ١١٠٥ ، وحكم سنة ، ثم حكم يعقوب باشا زاده إسماعيل بك سنة ١١٠٦ ، وحكم سنة ، ثم حكم كلّسلي قاسم آغا سنة ١١٠٧ ، وحكم سنة ، ثم حكم أيضاً إسماعيل بك سنة ١١٠٨ ، وحكمه سبع سنين ، ثم حكم يعقوب باشا زاده سليمان بك سنة ١١١٥ ، وحكمه سنة ، ثم حكم ملي زاده مصطفى بك سنة ١١١٦ ، وحكم سنة ، ثم حكم دلي خليل آغا ، وفي أيامه وقع غلاء عظيم سنة ١١١٧ ، وحكم سنة ، ثم حكم يعقوب باشا زاده عثمان بك سنة ١١١٨ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم مرة ثانية ملي زاده مصطفى بك سنة ١١٢٠ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم مرة ثانية يعقوب باشا زاده عثمان بك سنة ١١٢٢ ، وحكمه سنة ، ثم حكم مرة ثالثة ملي زاده مصطفى بك سنة ١١٢٣ ، وحكمه سنة .

وكان بين أبناء يعقوب باشا والمليَّة عداوة شديدة ، وكان أهل البلد فرقتين : فرقة يلقبون باليعقوبية ؛ لكونِهم من متعلقيهم ، وفرقة يلقبون بالملية ، فإذا حكم

أحد من الملية كان يقتل اليعقوبية ويجرمهم ، وبالعكس أيضاً ، ولم يكن لعداوتهم منتهى ، و ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ (١٠٨) حتى أشرفت ماردين على الخراب ؛ لما وقع بها من الطعان والضراب ، إلى أن أضيفت إلى بغداد أيضاً سنة ١١٢٤ .

وتولاها خليل آغا ، وحكمه سنة ، ثم حكم الحاج صادق آغا سنة ١١٢٥ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم ملي زاده أحمد بك سنة ١١٢٧ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم مرة ثانية الحاج صادق آغا سنة ١١٢٩ ، وحكمه (١٢) سنة ، وقد قدمنا أن ماردين كانت قد أشرفت على الخراب في أيام اليعقوبية والملية ولما توجهت إلى بغداد وتولاها صادق آغا نظمها على أحسن النظام ، ويقال : إنه عمَّر بها ألفاً وسبعمائة قرية ، وعمارته بعضها باق إلى الآن ، ثم حكم محمد آغا بن صادق آغا سنة ١١٤١ ، وحكمه خمس سنين ، وهو الذي ابتدع صاليان المنزل ، ثم حكم قبا صقال إبراهيم آغا سنة ١١٤٦ ، وحكمه سنة ، ثم حكم صول قول آغاسي إبراهيم آغا سنة ١١٤٧ ، وحكمه سنة .

ثم أضيفت ماردين إلى الدولة أيضاً ووهبها السلطان محمود لعلي الرضا باشا على طريق الإنعام والتمليك سنة ١١٤٨ ، وهي من ممتلكات ذرياته إلى يومنا هذا ، والمذكور أصله من ماردين ، ومدة حكمه أربعة أشهر ، ثم حكم ولده تقي بك سنة ١١٤٨ ، قتله والي بغداد أحمد باشا ، وذلك أن السلطان فوض حكومة بغداد لتيمور باشا الوالي بأرض الروم ، وعيَّن له جملة من الوزراء ليعينوه على عزل أحمد باشا ، وكان تدبير تيمور باشا أن يأتي إلى برية ماردين وينتظر الوزراء حتى يقدموا ويتوجه بهم إلى بغداد ، فاستمع بذلك أحمد باشا وتوجه بعسكره لاستقبال تيمور باشا فصادفه بين أرزن الروم ودياربكر ، ومعه شرذمة من

(١٠٨) سورة الأعراف من الآية ٣٨ .

الجيش ، فقتله وأرسل برأسه إلى السلطان ، وعاد إلى بغداد ، فمرَّ على طريقه بتقي بك وقتله وأرسل برأسه أيضاً إلى السلطان ؛ لأن تقي بك قد امتنع عن طاعته خوفاً من السلطان ؛ لأن أحمد پاشا كان في غضب السلطان ؛ لادعائه أنه من نسل السلطان ، وذلك أن السلطان وهب جارية حاملاً لحسن پاشا الوالي ببغداد فولد لها أحمد پاشا ، والله تعالى أعلم ، فخدع المذكور لتقي بك وقتله بالحيلة ، وأرسل رأسه إلى الدولة ، وكان حكمه شهرين ، ثم التمسها محمد پاشا من السلطان وأضافها إلى دياربكر ، وذلك الأثر باق إلى اليوم كالنيابة والگمرك ونحوهما .

ثم حكم إلياس آغا من جهة محمد پاشا في العام المذكور ، أعني سنة ١١٤٨ ، وحكمه أربعة أشهر ، ثم حكم ملي زاده عبد الله بك وحكم ثمانية أيام ، ثم حكم سليم آغا ، وحكم اثنا عشر يوماً ، ثم حكم ثلاثة حكام في نهار واحد ، منهم : صاغ قول آغاسي إبراهيم آغا ، وحكمه ثلاثة أشهر ، وتوفي ، ثم حكم أيضاً إليلس آغا ، وحكمه عشرة أيام ، ثم حكم يوسف آغا ، وحكمه سنتان .

وكانت ماردين أضيفت إلى بغداد سنة ١١٤٨ وذلك في أيام الوزير محمد پاشا ، ثم حكم إبراهيم آغا بن أخت الحاج صادق آغا سنة ١١٥٠ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم عمر آغا سنة ١١٥٢ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم الخزينة كاتبي محمد أفندي سنة ١١٥٥ ، وحكم أربع سنين ، وكان له من الأتباع خمسمائة ، وكان كثير الجور ، كثير السخاء ، كمربيَّة الأيتام من كدِّ فرجها ! وهو الذي أبدع الدَّين على أهل الحرفة وكان يعطيهم بذلك صكاً مختوماً فإذا أراد أداء دينه أعطى من الأموال ما أراد بمقدار ما يريد كما هو المعتاد في هذا الزمان ، ثم حكم رستم آغا في سنة ١١٥٩ ، وحكمه ستة أشهر ، ثم حكم ثانياً محمد أفندي ستة ١١٥٩ ، وحكم سنة ونصف ، وفي أيامه توفي أحمد پاشا سنة ١١٦٠ ، وحكم مكانه سليمان پاشا أبو ليلى ببغداد .

وأضيفت ماردين إلى الدولة أيضاً ، وحكم بها إبراهيم بك المعروف بأزون بك سنة ١١٦١ ، وهو من أولاد علي الرضا باشا المار ذكره ، وحكم سنة ، ثم حكم پير محمد آغا سنة ١١٦٢ ، وحكمه سنة ، ثم حكم نوشلي زاده سيد سليمان آغا سنة ١١٦٣ ، وحكمه سنة .

ثم أضيفت ماردين مرة رابعة إلى بغداد في أيام الوزير أبو ليلى ، وحكم بها عثمان آغا التوقاتلي سنة ١١٦٤ ، وهي مضافة إلى بغداد إلى هذا الزمان ، وحكمه سنة ، ثم حكم ثانياً عمر آغا سنة ١١٦٥ ، وحكمه أربع سنين ، وفي أيامه بني جامع الريحانية ومنارته بقرب السوق سنة ١١٦٦ ، وكان مكان الجامع مزبلة ، ولما حفروا الأساس وجدوا به شهيداً لم يبل ، والسبب في بنائه : إن عادلة خانم ابنة المرحوم أحمد باشا أرسلت لعمر آغا دراهم ليبنيه لأجلها إلا أن المذكور جمع المصروفات من العالم ، وبناه ، ثم حكم عبد الرحمن بك سنة ١١٦٩ ، وحكمه سنة ونصف ، ثم حكم ثالثاً عمر آغا سنة ١١٧١ ، وحكمه سنتان ، وفي أيامه حدث قحط عظيم حتى أكل بعض الناس أطفالهم وموتاهم سنة ١١٧١ ، ثم حكم ثانياً عثمان آغا سنة ١١٧٢ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم كوپري بكي مصطفى آغا سنة ١١٤٧ ، وحكم سنة ، وحكم رابعاً عمر آغا سنة ١١٧٥ ، وفيه توفي أبو ليلى ، وحكمه سنتان ، كرجي حسن كهيا سنة ١١٧٧ ، وحكمه سنة ، ثم حكم خامساً عمر آغا سنة ١١٧٨ ، وحكمه سنتان ، ثم حكم الحاج سليمان آغا سنة ١١٨١ ، وحكمه ثلاث سنين ، ثم حكم ثانياً حسن كهيا سنة ١١٨٤ ، وحكمه سنة ، ثم حكم موصلي إسماعيل سنة ١١٨٥ ، وحكمه سنة ، وفي أيامه حدث طاعون عظيم ، ثم حكم ثالثاً حسن كهيا سنة ١١٨٦ ، وحكمه سنة ، ثم حكم ثانياً الحاج سليمان آغا سنة ١١٨٧ ، وطردوه عن ماردين ، وحكمه سنة ونصف ، ثم حكم رابعاً حسن كهيا سنة ١١٨٩ ، وحكمه أربعة أشهر ، ثم ولي الوزارة ببلدة

كركوك ، وكانت من مضافات الدولة ، وارتحل المذكور إليها ومكث سنة ، ثم تقلد وزارة بغداد ، ثم حكم يوسف آغا سنة ١١٩١ ، وظهر في أيامه فتن كثيرة .

فمن ذلك : هجوم أهل ماردين على بيت المفتي أحمد أفندي الشاكر ، والسبب في ذلك أنه وقع بين المفتي وبين ملي زاده عيسى بك مشاجرة بمحضر الويوده [١٠٩] يوسف آغا واشتد بينهما الخصام واللدد ، وتفرق المجلس على تلك الحال ، فانطلق أحمد أفندي إلى داره وانطلق عبد الله بك وإخوته عيسى بك ، وحاجي عبد الفتاح بك ، ومحمد نجيب بك ، وحيدر بك ، وقصدوا الجامع الكبير ، وأحضروا وجوه البلد وشيوخ الأصناف ، وغلقوا الأسواق ، وتحالفوا على قتله أو إخراجه من ماردين ، فرضوا بذلك كلهم ؛ لأن كل ذي نعمة حسود ، وتقلدوا بالسلاح ، وبارزوا للكفاح ، وتأبطوا شراً ، وصالوا بجملتهم جهراً ، فاتصل الخبر بالمذكور أحمد أفندي ، فركب جواد الهزيمة ، وولى نحو قبالا ، فلما دخل النفير داره ، وتفقدوا أخباره ، فقيل لهم : قد انهزم إلى البستان ، وولى ثم دنى فتدلى ، فعند ذلك شرعوا بنهب أمواله ، وكان المال إذ ذاك باقياً على حاله ، فأخذوا ما كان من الذهب والفضة والخيل المسومة والفرش النفيسة والكتب القيمة ، ويقال : إن بعض الفقراء الذين نهبوا داره ، وقع في يدهم أموال ثمينة وصاروا أغنياء من تلك الأموال ، فنهبوا جميع ما وجدوا بلا اكتراث ، وتركوا الدار خالية عن المتاع والأثاث ، قيل : إن هذه الأخبار لما اتصلت بأحمد أفندي وهو في البستان بقبالا ،

---

(١٠٩) الويوده : لقب للحاكم الذي يكون منصبه أعلى من منصب المتسلم وأقل من منصب باشا من الدرجة الثانية ، واويوده يحكم ولاية صغيرة أو مدينة لا تكون جزءاً من إحدى الباشويات ، والويوده يتمتع بكل ميزات الباشا من الدرجة الثانية ولكن أقل منه نوعاً ، ولمكانة ماردين المميزة رفع العثمانيون منصب حاكمها إلى رتبة الويوده . وانظر كتاب ( داود باشا والي بغداد ) للدكتور عبد العزيز سليمان نوار ، دار الكتاب العربي القاهرة ، ط ١٩٦٨ ، ص ١٥١ .

أخذ قبضة من الحشيش ونثره على وجه الحوض ، فانتشر الحشيش على وجه الماء ، ثم اجتمع في زاوية الحوض إلا القليل منه ، فقال سيعود عليَّ المال بتمامه ، ولن يهلك منه سوى القليل ، فكان كما قال ، وذلك أنه كان من القضايا الاتفاقية أن توجهت حكومة ماردين للحاج عباس آغا في العام المذكور سنة ١١٩١ ، والحاج عباس آغا هو حمو أحمد أفندي ، فأرسل المذكور وكالة الحكومة من بغداد لملي زاده عبد الله بك ، ولم يعلم بما جرى لعبد الله بك مع صهره أحمد أفندي ، فتوجه يوسف آغا الويوده نحو بغداد ، وجلس مكانه عبد الله بك وكالة عن حاج عباس آغا فأخذه الروع والقلق ، وأراد رتق ما فتق ، وأمر المنادي بالنداء على جمع الأموال التي نهبها الناس من بيت أحمد أفندي ، فاجتمع من تلك الأموال بعضها وبقي بعضها ، حتى وصل الويوده الحاج عباس إلى نصيبين ، واستمع بما جرى على صهره أحمد أفندي ، فعند ذلك أرسل أمراً بحبس عبد الله بك وأخيه حاجي بك وحيدر بك ، فحبسوهم في القلعة ، وانهزم عيسى بك ومحمد نجيب بك من ماردين ، ولما وصل بالقرب من ماردين ونزل بروضة الفردوس ، كما هو معتاد الحكام ، أمر بصلب إبراهيم بك القلعي وكان ممن حرض الناس على النهيب ، فصلب برأس الميدان ، فاجتاز الويوده على جنازته ودخل ماردين ، ثم إنه أمر في اليوم الثاني أن ينادى المنادي بجلب الأموال المنهوبة ، فاجتمع منه ما كان قد بقي إلا القليل ، وبقي عبد الله بك وحاجي بك وحيدر بك في القلعة محبوسين ، ثم إن حسين آغا بن الحاج حسن آغا ملك السركچيه أرسل إلى اليويوده الحاج عباس آغا بإطلاق البيكات في ضمن كتاب مشتمل على التهويل والتهديد ، وبالغ في إطلاقهم بالتأكيد والتشديد ، وتبعه بعض العشائر كالحاج حسن آغا ضابط الشرس ، وعشيرة الكيكية وغيرهم ، فاغتاظ الويوده من كتاب حسين آغا السركچي ، وكتب إلى القبائل والعشائر ، وجمع الجيوش والعساكر ، فاجتمع عنده نحو من ألف وخمسمائة مقاتل ، كعثمان آغا أمير العمريان [ الأومريان ] ، وعيسى بك أمير المحلمية ، وحسن بك أمير الصورو

وغيرهم ، وتجهز لمحاربة السركچيه ، فعند ذلك أرسل حسين السركچي إلى سلطان البر تيمور باشا الملي (١١٠) يتوقع عنده بأن يمنع عنه هذه العساكر ، وأن يوافق بينه وبين الويوده الحاج عباس آغا ، وكان تيمور باشا نافذ الكلم عند الوزراء وسائر الحكام ؛ لكونه من أهل الشوكة والعظمة ، فأرسل رسوله إلى الويوده ووافق بينه وبين حسين آغا السركچي وعقد بينهما المودة والصلح ، وفرق الويوده عساكره إلى أماكنها ، ثم إن الويوده توجه بخدمه وحشمه نحو السركچيه ، فأضافوه أياماً ، وخلع على حسين آغا خلعة فاخرة ، وكذلك خلع على متعلقيه من أمراء العشائر كضابط الغرس وأمير الكيكية ، وطيب قلوبهم واسترضاهم في قتل المحبوسين ، ثم عاد إلى ماردين ، وأمر بقتل عبد الله بك وأخيه حاجي بك وحيدر بك وكان قتلهم يوم السابع من ربيع الآخر سنة ١١٩١ .

ولما اتصل خبر قتلهم إلى والي بغداد تأسف عليهم ، وغضب لقتلهم غضباً شديداً ، وأمر بعزل الحاج عباس آغا ، ثم وجه حكومة ماردين للويوده السابق يوسف آغا ، وأمره الوزير بالانتقام ، فأرسل يوسف آغا وكالة الحكومة لعبد الله بك الداشي ، فعند ذلك انهزم المفتي أحمد أفندي إلى قبالا ، وتبعه في ذلك متعلقوه

(١١٠) تيمور أو تمر باشا كما يسميه الكرد هو زعيم عشيرة ( الملي ) الكردية ، وهو ابن عبدي بن محمود بن عبدي كلش [ كما جاء في كتاب عشائر الشام لأحمد وصفي زكريا ص ٦٦٥ ] ، له ذكر في الأغاني الشعبية الكردية ، تولى زعامة المليين سنة ١١٩٥ هـ ( ١٧٨٠ م ) انتفض ضد الدولة العثمانية سنة ١٢٠٥ هـ فأوعز السلطان سليم العثماني إلى والي بغداد سليمان باشا أن ينهي تمرده ، فهاجم الوالي عليه فانهزم تيمور منه، ونصب الوالي إبراهيم أخا تيمور مكانه ، وفي سنة ١٢١٥ هـ ( ١٨٠٠ م ) لجأ تيمور إلى والي بغداد عارضاً الطاعة فتشفع الوالي له عند السلطان لكي يعاد إليه منصبه وهو حكم الرقة مع رتبة وزير ، فوافق السلطان على ذلك ، وانظر ( مطالع السعود ) ص ( ٢٠٣ و٢٠٤ و٢٣٩ ) ، خلفه في زعامة المليين ابنه محمود ( توفي في حلب حوالي سنة ١٢٩٥ هـ ) فخلفه ابنه إبراهيم باشا ( توفي ١٣٢٦ هـ ) .

كالواعظ أحمد أفندي ، وبندر زاده الحاج محمد آغا ، وكوسه علي ، وكاتب الفتوى محمود أفندي ، وإمام الشهيدية ملا عمر ، وكاسم آغا الديري ، وغيرهم من الداشية ، كالتفنكچي باشي خشمان ، وشيخموس بن علي كهيه ، وأخوه الحاج مصطفى . ثم إن حسين آغا السركچي ، وشيخ الطي ، وضابط الغرس حاج حسن ، دخلوا ماردين واتفقوا وقبضوا على الحاج عباس آغا الويوده السابق ، وحبسوه في القلعة حتى قدم الويوده يوسف آغا وأطلقه وأرسله إلى بغداد .

وكان حكم الحاج عباس ثلاثة أشهر ، وكان انطلاق حاج عباس أولاً إلى قبالا ، فسار هو والمفتي صهره إلى عثمان العمرياني ، ثم إلى كركوك ، ومكث أحمد أفندي عند حسن كهيه بكركوك ، وتوجه الحاج عباس آغا إلى بغداد ، ثم إن يوسف آغا قلد التفنكچيباشيه إلى حسن آغا الغرسلي ، وأراد أخذ الانتقام من متعلقي أحمد أفندي فخدع أولاً رؤساء الداشية ، وطمعهم في المناصب ، وجذبهم إلى ماردين ، وكان قد انهزموا مع أحمد أفندي إلى قبالا ، فجاء منهم عبد الله بك ، وشيخموس بن علي كهية ، وخشمان ، وجاء معهم من المنهزمين أيضاً حاج محمد بندر زاده ، وعثمان بن پزني ، فلما دخلوا على يوسف آغا الويوده ترحب بهم ، وضحك بوجههم ، كما قيل :

وإذا الصديق رأيته متملقاً
فهو العدو أحقُّ ما يُتَجَنَّبُ
واحذره يوماً أن تراه باسماً
فالليث يبدو نابه إذ يغضبُ

ثم أرسلهم إلى الخزنة لمصلحة ، فدخلوا وسلط عليهم حسن الغرسلي فقتل الثلاثة المذكورين من الداشية ، أعني : عبد الله بك ، وشيخموس ، وخشمان ، وقبض على الحاج محمد بندر زاده ، وعثمان بن پزني ، وحبسهم ، ثم أخذ من

حاج محمد عشرة أكياس دراهم ، ومن عثمان كيساً واحداً جناية ، وأطلقهم ، وكان قتل المذكورين يوم الأحد يوم الثامن والعشرين من رجب سنة ١١٩١ .

ثم إن يوسف آغا نفى الواعظ أحمد أفندي وأرسله مع ملية يوسف المهمد ، فلما ذهبوا به ووصلوا بالقرب من حرّين قتلوا الواعظ المذكور يوم الاثنين من رجب ، ثم إن يوسف آغا سار بالعساكر لتأديب عثمان العمرياني ، فتوسط بين الفريقين شيخ الطي وصالحهم ، وعاد الويوده إلى ماردين ، ومكث حتى أتاه الأخبار بموت عبد الله پاشا والي بغداد ، وتوجهت الوزارة لحاكم كركوك الگرجي حسن پاشا وذلك في محرم الحرام سنة ١١٩٢ ، فعند ذلك تشتت حال الويوده يوسف آغا ، واختلت حكومته ، وانقطع الطريق على أبناء السبيل ، وصار كل مقصول جلئزاً ، فمن جملة الخلل الطارئ في أيامه أنه جاء سبعة من الداشية المنهزمين بعد المغروب ولم يكن للبلد إذ ذاك سور ، فدخلوا على مصطفى أفندي القاضي المعروف بتقي زاده ، فسلموا عليه ، فرد عليهم السلام ، وضربوه برصاصتين ، وخالفوا شرائط الإسلام ، فلما عاد السبعة صادفوا في طريقهم قطرين من أقطار الويوده وعليهم التبن ، فأخذوا القطرين بتبنهم وذهبوا بِهم إلى عثمان العمرياني ، وكانت ليلة الثلاثاء من صفر سنة ١١٩٢ .

ثم حكم من بعده عبد القادر بك يعقوب پاشا زاده ، فلما اتصلت الأخبار الهزم يوسف آغا الويوده إلى الغرس وحاج حسن آغا الغرسلي التفنكچي باشى ، وكاتب الفتوى خاكي أحمد أفندي ، وعبد الرحيم أفندي بن خضر أفندي ، وملي زاده عيسى بك ، وغيرهم ، وضبطوا ما كان له من المال بحضور العلماء والوجوه ، ثم إن يوسف آغا الهزم من الغرس إلى دياربكر وتوفي بها مسموماً سنة ١١٩٢ ، وتوفي عبد القادر بك في العام المذكور مسموماً ، وحكمه شهر .

ثم حكم إسماعيل كهيه سنة ١١٩٢ ، وحكمه سنة ، ثم حكم عرب علي آغا سنة ١١٩٣ ، وحكمه ثلاثة أشهر ، وتوفي مقتولاً ، والسبب في قتله أنه كان قد

أظهروا بماردين الطائفة الينكچارية [111] ، وذلك أن ماردين لما دخلت تحت حكم آل عثمان أنشأ بها السلطان سليم أوجاغ الينكچارية ، وللطائفة المذكورة آداب وعادات وقوانين محدودة ومعلومة ، فخالف أهل ماردين تلك الشرائط ؛ لكون غالبهم من الأكراد ، فنسخ السلطان ذكرهم وأخرجهم من حكم هذا الأوجاغ ، وجعلهم نسياً منسياً ، ومضى على ذلك نحو مأتي سنة إلى تاريخ ١١٩١ ، فظهر بماردين بعض المفسدين وأردوا أن يعيدوا أوجاغ الينكچارية كالأول ، فعرض عامة البلد إلى الدولة العلية ، وذلك في أيام السلطان عبد الحميد خان والتمسوا أن يخرطهم في سلك طائفة الينكچارية ، ويراعوا شروطها العرفية ، كما هو القانون والمعتاد ، ويكونوا من عسكر السلطان كسائر البلاد ، وغرضهم من ذلك أن يكونوا على الاتفاق لئلا يجور عليهم أهل البغي والنفاق ، مع أن التدابير لا تغلب المقادير ، كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه

ويأبى الله إلا ما يشاء [112]

فأجابَهم السلطان إلى ما طلبوا ، وأدخلهم في هذا الأوجاغ ، ثم إنهم شرعوا بالزنا وشرب الخمور ، وتعاملوا بأنواع الفسق والفجور ، فمنهم من كان يمنع حقوق العوام ، وبطل بينهم الشرع وحكم الحكام ، كأنهم عمالقة من بني حلم ، كما قيل :

---

(١١١) الطائفة الإنكشارية ( yeniceri ) : وهو اسم للجيش العثماني الذي كان يتألف من أطفال غير المسلمين الذين يتم تربيتهم من قبل الدولة ، وقد أحرزوا انتصارات عظيمة فأعطوا امتيازات كبيرة ، ولما قوي أمرهم أصبحوا عبئاً ثقيلاً على الدولة وأحدثوا قلاقل حتى وصل الأمر بهم أن اغتالوا بعض السلاطين ، لذا اضطرت الدولة إلى القيام بإلغاء هذا الجيش وذلك سنة ١٢٤٠ هـ ـ ١٨٢٦ م ، وانظر التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ( ٨/١٦٩ ) .

(١١٢) البيت للإمام الشافعي وعنده : ويأبى الله إلا ما يريد .

وقــع الخلف لديهم والغلط

هكذا الفحل إذا بال ضرط

ثم إنـــهم هجموا يوماً على الويوده عرب علي آغا وقتلوه وقتلوا خزيـــن داره سليمان آغا ، فاتصلت أخبارهم إلى الدولة العلية ، فنسخوا ذكرهـــم كـــالأول ، وأخرجوهم عن هذه الزمرة ، وامتد أوجاخهم في الدولة أربعة أشهر ، وطال فيمـــا بينهم أربع سنـــين ، وكان قتل الويوده في يوم الأربعاء الخامس عشر مـــن رجـــب سنة ١١٩٣ .

ثم حكم ملي زاده عيسى بك سنة ١١٩٤ ، فظلم وجار وأخرجوه عن البلـــد ، ومدة حكمه سنتان ، ثم حكم إبراهيم أفندي سنة ١١٩٦ ، وحكمه سنة ، وفي هذا العام قُتِلَ كاسم آغا الديري وأخوه إبراهيم وستة أخر يوم السادس من شـــوال ، قتله الداشية ، وكان بينه وبينهم عداوة ، ثم حكم صاري محمد آغا ســنة ١١٩٧ ، وكان حكمه سنة ، ثم حكم جفود أوغلي عبد الله آغا سنة ١١٩٨ ، وكان حكمـه سنة ، ثـــم حكم مرة ثانية ملي زاده عيسى بك سنة ١١٩٩ ، وكان حكمه سنة ، ولما قدم من بغداد إلى نصيبين ، ومكث في نصيبين وأرسل عسكراً من العمريانيـــة والداشية صحبة أخيه محمد نجيب بك ، وأمرهم أن يقتلوا ثلاثة من وجـــوه بلـــدة ماردين ، أحدهم والدي عمر أفندي ، وكان يتولى قضاء ماردين ويعرف بخطيـــب التكية ، والثانـــي كوپرلـــي زاده محمد آغا ، وكان يتولى الوكالة بمـــاردين عـــن الحكام في بعض الأحيان ، والثالث أوزون علي آغا الجوزي ، فدخل العسكر فجـأة بالليل وتفرق على البيوت الثلاثة ، وأحاطوا بالبيوت وقتلوهم في ديـــارهم يـــوم الاثنـــين يوم التاسع من جمادى الآخر من العام المذكور .

يقول الناسخ الفقير : وكنت إذ ذاك حملاً لم أولد .

ثم حكم عثمان أفندي المكتوبجي سنة ١٢٠٠ ، توفي مسموماً وحكمه ثمانيـــة عشر يوماً ، ثم حكم سلمدار الوزير مصطفى آغا سنة ١٢٠١ ، وحكمه ســـنة ،

وقتل الويوده المذكور السردار محمد آغا وحسن طوطي ، ثم حكم مرة ثالثة ملي زاده عيسى بك سنة ١٢٠٢ ، وكان حكمه ستة أشهر ، ثم حكم مرة ثانية إبراهيم أفندي سنة ١٢٠٣ ، وفي هذا العام توفي السلطان عبد الحميد واستولى السلطان سليم ، وكان مدة حكومة إبراهيم أفندي سنتان ، ثم حكم مرة رابعة ملي زاده عيسى بك سنة ١٢٠٥ .

وفي هذا العام كان مجيء سليمان باشا والي بغداد [١١٣] إلى ماردين ، وضرب خيامه بحرزم في شهر شوال ، وأقام أربعة أشهر بنواحي ماردين ، والسبب في مجيئه أنه أتى بأمر السلطان لتأديب تيمور آغا الملي ، وبقدومه انهزم تيمور آغا إلى سنجار ، ثم توجه تيمور بعد سنين للتوقع إلى بغداد ، ففرح بقدومه سليمان باشا ، وأرسل بطلب العفو والوزارة له من السلطان فأنعم السلطان عليه وزارة الرها ، فتوجه تيمور باشا إلى الرها سنة ١٢١٥ ، ولم يتيسر له الدخول ومنعه أهل الرها عن الدخول إلى أن نسخ السلطان ذكره عن الوزارة ، ورفع عنه أطواغه .

ثم إن سليمان باشا لما قدم إلى ماردين وانهزم منه تيمور باشا أراد الرجوع نحو بغداد ، فقتل من يزيدية الموسسان مائة وعشرين رجلاً في آن واحد وأمر بصلب حسين آغا السركجي والحاج حسن آغا الغرسلي ، فصلبا بسوق ماردين في شهر محرم ١٢٠٦ ، يوم الخامس والعشرين .

ثم إن سليمان باشا استأذن من السلطان سليم في تعمير سور ماردين ، وكان منهدماً خراباً من عهد تيمور لنك ، وقيل من عهد قاسم پادشاه ، فأذن السلطان

(١١٣) ولاه السلطان عبد الحميد الأول حكم بغداد سنة ١١٩٤ هـ ١٧٨٠ م وبقي في الحكم حتى سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م ، ويلقب بسليمان الكبير . وانظر ( مطالع السعود ) لعثمان بن سند الوائلي تحقيق د. عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي ، ط ١٩٩١ ، الموصل ، ص ١٤٥ وما بعدها .

بتعمير السور فتوجه سليمان باشا إلى بغداد يوم الثاني من صفر سنة ١٢٠٦ ، وشرعوا بتعمير السور برجب من العام المذكور وذلك باهتمام الويوده عيسى بك ، وامتدت عمارته ثلاث سنين ، وكان مدة حكومة عيسى بك سنتين ، وتوفي بذي الحجة ليلة العيد سنة ١٢٠٧ ، ثم حكم أخوه محمد نجيب بك ، فجار وظلم فاجتمع عليه الخلائق والأمم ، وقتلوا نسيبه أمير الملية يوسف المهمد في السراي ، وانهزم الحاكم ولم يفده التدبير والسراي وذلك سنة ١٢٠٧ ، ومدة حكمه أربعة أشهر ، ثم حكم مرة ثانية صاري محمد آغا ، وارتحل إلى قرية قوجحصار في ذلك الزمان ، وقتل بها من الداشية التفنكچي باشي الحاج محمد بن خشمان ، ثم أراد أن يعود إلى البلد في تلك الأيام ، فاتفق على عزله الخاص والعام ، وكان استيلاؤه سنة ١٢٠٨ ، ومدة حكمه (١٢) سنة ، ثم حكم علي بك البغدادي ، وقتل من الداشية التفنكچي باشي السابق عبد القادر ، وانهزمت جملة الداشية عن البلد ، وتولى شيخي زاده عبد الرحيم آغا منصب التفنكچيباشية ، وكان عبد الرحيم من أشد الأعداء على الداشية وصار قتله على يدهم ـ كما سيأتي ـ وكان استيلاء علي بك سنة ١٢١٠ ، ومدة حكمه ستة أشهر ، ثم حكم مرة ثانية ملي زاده محمد نجيب بك ، فلما قدم من بغداد ونزل بروضة الفردوس كما هو المعتاد ، عصى عليه عبد الرحيم المذكور واغتر بمتابعة كافة الجمهور ، وتبعه في العصيان فندي السركچي وصالح بك أمير الصور ، فرجع محمد نجيب بك نحو نصيبين على الفور ، وعرض حاله لسليمان باشا ، وعرض أهل البلد وانتظر كل من الطرفين الجواب والمدد ، فلم يرض الوزير بما فعله عبد الرحيم من العصيان وأمد الحاكم بعسكر الموصل وكركوك والكردان ، واتفق معه عشائر البرية فتوجه لتأديب السركچيه ، وأطاعه في ذلك تيمور السركچي وهو ابن أخي فندي ، وافترقت السركچيه فرقتين ، وعظمت الأمور ، واستعان الحاكم على فندي بابن أخيه

تيمور ، وأعطى الله تعالى النصر للحاكم على من طغى وقطع رؤساً كثيرة من رفقاء فندي آغا .

وأما أهل ماردين فإنهم مكثوا في المحاصرة نحو أربعين ، وكانوا يحرسون الأسوار ليلاً ونهاراً ، وكل من وجدوا منه الخيانة أخرجوه جهاراً ، إلا أنهم كان قد نفد عنهم الزاد ؛ لأن محاصرتهم كانت أيام الحصاد ، فأدركهم لذلك الفتور والعجز وأكلوا الحمص عوضاً عن الخبز ، فكرهوا من عبد الرحيم واضطروا إلى التسليم ، فخرج من البلد للصلح بعض الوجوه والأركان ، وكان الحاكم يومئذ ببايلاق السلطان ، فسلموا عليه واعتذروا بين يديه وطلبوا منه العفو والرضا وأن لا يؤاخذهم بما مضى ، فأجابهم لذلك وعفا عنهم وتجاوز عما كان منهم على شرط أن يسلموه عبد الرحيم ليذيقه العذاب الأليم ، فعند ذلك طلب عبد الرحيم الأمان ، وخرج إليه بالطاعة والإذعان ، فقيده وأرسله إلى بغداد ودخل البلد ، وفاز بنيل المراد وشرع بتأديب المفسدين ، فمنهم من نفاه إلى بغداد ، ومنهم من قتله وأراح منه العباد ، وقتل دزدار القلعة محمود آغا ، ولطف الله أفندي خطيب الجلمع الكبير ، والبازرباشي الحاج أحمد الأيرط ، والحاج محمد بن علي عور وغيرهم ، وهدم دار عبد الرحيم ، وضبط أمواله ، ونفدت كلمته في الأكراد ، ورخصت الفواكه والزاد ، وبيع كيل الحنطة بأربعة قروش ، والشعير بقرشين ، وحدث في أيامه الطاعون سنة ١٢١٤ ، وكان استيلاؤه سنة ١٢١١ ، ومدة حكمه (٤) سنوات ، ثم حكم درويش آغا وحكمه (٣) أشهر .

ثم حكم عبد الله آغا ، وعصى عليه فتاح بك الداشي وبعض الداشية ، وانهزموا منه وتحصنوا بقرية المنصورية ، فوجه المذكور إليها من العساكر رجالاً وخيلاً فانهزم الدواشي عنها ليلاً ، فشنوا الغارة على القرية نهاراً ، ونهبوا من بها من النصارى ، وكان المذكور محباً للخيرات ، وراغباً في الصدقات والحسنات ، فمنها أنه أنفق على الأرامل والصعاليك من الدراهم النقود ، وبنى

منارة صغيرة بجامع الملك محمود ، وله مدرسة ببلدة إربل ، ومدرسة بالبصرة ، وأخرى بالبندر ، وفي أيامه توفي سليمان باشا وحكم مكانه علي باشا [114] وامتلأ ثلبه رعباً وخوفاً وخرج عن ماردين ، وهرب نحو حسنكيفا ، ثم طلب له العفو من الوزير وتوجه نحوه ذلك الأمير ، وكان مدة حكمه سنة وخمسة أشهر .

ثم حكم بعده مصطفى آغا بن الويوده السابق صاري محمد آغا ، وذلك في أوائل محرم سنة ١٢١٨ ، وكان حكمه ستة أشهر .

ثم حكم مرة ثالثة علي بك ، وفي أيامه ظهر القُمَّل بالبرية ، وأكل بعض الزرع في الكيكية ، وترقى كيل الحنطة من العشرة إلى الخمسين ، وذلك سنة ألف ومائتين وتسعة عشر من السنين ، وأقبل علي باشا لافتتاح سنجار واستولى على بعض قرى الكفار ، ثم ظهر خيانة من أبناء الشاوي وهم من أعيان بغداد ، فقتلهم علي باشا وعاد ، وكان علي بك قد توجه لاستقبال الوزير وأمده بالذخائر كالحنطة والشعير ، فودع الوزير وعاد إلى ماردين ، وتوفي بها مسموماً ذلك الحزين ، وذلك يوم الثالث والعشرين من جمادى الآخر سنة ١٢٢٠ ، ومدة حكمه ستنان . ثم حكم ملي زاده محمد صادق بك بن الحاكم السابق عيسى بك ، وعزم على قتل الحاج مصطفى آغا التفنكچي باشي بن علي كهيا الداشي ، وعلى قتل حسين بن سليم الأوده باشي ، من غير توقف ولا تحاشي ، فأباح بسره وما كتم ، وأنساه الشيطان شعر من نظم :

أبْخِلْ بِسرِّكَ و لا تَبُحْ يَوماً بهِ
فَصَغيْرُهُ يَأتي بِكُلِّ عَظيمِ
أوَ ما تَرى سِرَّ الزنادِ إذا فشا
يَأتي وَشيكاً سَقطُهُ بِجَحيمِ

(١١٤) الذي تولى حكم بغداد من سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م حتى سنة ١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م .

فأحسَّ بذلك الرجلان المذكوران ، وهربا إلى أمير العمريان ، وشرعا بتحريك الفتن والفساد ، وتبعهما في ذلك بعض الأكراد ، ولم يتيسر أحد من أهل الفطنة أن يسعى لإخماد تلك الفتنة ، وثارت الفتن بين القوم ، وهلم جرا إلى هذا اليوم .

أرى تَحتَ الرَّمادِ وَميضَ نارِ
ويوشكُ أنْ يشبَّ لَها ضرامُ
وإن لم يُطفِها عقلاء قومٍ
لَكن وقودها جثَثٌ و هامُ
أقولُ مِنَ التَحَيُّرِ ليتَ شعري
أأيقاظٌ أميَّةُ أمْ نيامُ
إذا انتَبَهوا فَذاكَ دوامُ مُلْكٍ
وَإنْ رَقَدوا على الدنيا سلامُ

وأما محمد صادق بك فإنه فوض التفنكچيباشية لعبد الفتاح بك وقلد لأحمد آغا الأوده باشية وهما أيضاً من الداشية إلا أنَّهما من زمرة القسَّكية ، وأما الحاج مصطفى وحسين فهما من الهارونية .

واعلم أن هؤلاء الداشية أصلهم من أكراد الجزيرة العمرية ، أخذوا بالقحط والسنين ، فانتقلوا نحو بلدة ماردين ، وسكنوا بكهوفها وخربها ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبَهم بِها ، منهم من كان يسأل بالأبواب ، ومنهم من يصطاد الذباب والذياب ، ومنهم سارق ومنهم حطّاب ، وكانوا عشائر شتى ، وعددهم كقوم يونس بن متَّى ، وأشهرها الهارونية والقسكية ، ثم استدعي برئيسهم حاكم ذلك الزمان ، وسأله عن نسبهم ، فقال : نحن من أكراد البوهتان ، فجعله عنده من جملة الخدم والعون ، وولاه حرس الأسواق كما تولاه فرعون ، فانجر أمرهم وطال ، وظهر منهم شجعان وأبطال ، ولم يزالوا مقربين إلى الحكام ،

حتى وسدت إليهم الأمور والأحكام ، وقتلوا خلقاً كثيراً من وجوه البلد ، ولم يبق مرقباً سواهم أحد ، ووقع رعبهم بقلوب الناس ؛ لكونهم من ذوي الشدة والبأس ، كالأتراك في بني العباس ، وذلك بعد ما كانوا من الحراس ، كما قيل :

بنت كرم يتمتها أمها

وأهانوها فدست بالقَدَمْ

ثم عادوا حكّموها بينهم

وَيْلَهُمْ منْ شَرِّ مظلومٍ حَكَمْ

ومناصبهم ثلاث لا غير ، وبيدهم عقد الشر والخير ، أعلاها *التفنكچيبا* شية وأوسطها الأوده باشية ، وأدناها الحسسباشية ، وكل من فارق شيئاً من هذه المناصب كان عليه من أعظم المصائب ، ويتمنى أحدهم موته بل قتله ، ولا يرى طرده وعزله وقد غفلوا ، كما قيل :

والويلاتُ وإن طابَتْ لِمَنْ

ذاقَها فالسُّمُ فِي ذاكَ العَسَلْ

إنَّ نصْفَ الناسِ أعداءٌ لِمَنْ

وَلِيَ الأحكامَ هذا إنْ عَدَلْ

وأما في هذا الزمان فإنّهم قد أصبحوا بيد الأكراد كالسمكة بيد الصياد ، بل كالشاة في فم الذئب ، أو العليل في يد الطبيب ، إن شاؤا عزلهم عزلوهم ، وإن شاؤا قتلهم قتلوهم ، وهم يظلمون الناس ويطعمونَهم ، ويهدمون دينَهم ودنياهم ويكرمونهم ، كما قيل :

كَمَنْ قَلَّ من داودَ حرفاً

وأعطى واوَهُ ظُلماً لِعَمرو

ولنرجع إلى ما كنا فيه : ثم إنه لما انهزم الحاج مصطفى وأعوانه من صادق بك ، فأقام المذكور مقامه عبد الفتاح بك ، فاختلَّ النظام على الخاص والعام ، ووقع الخلق في لجة وظلام ، كما قيل :

الثوبُ إنْ أسرَعَ فيهِ البلا
أعيا على ذي الحيلةِ الصانعِ
كُنَّا نُداريها وقَدْ مُزِّقَتْ
واتسعَ الخرقُ على الراقعِ

ودام الخلف بين الهارونية والقسكية حتى انعزل صادق بك من المليَّة وذلك سنة ١٢٢٢ ، وكان حكمه سنة ونصف .

ثم حكم عثمان آغا بن اسپير آغا ، ورجت به الخلائق دفع من طغى وبغى ، فكان يومه من أضيق اليوم ، واستيقظت الفتن من السنة والنوم ، كما قيل :

و لَقَدْ وَقَعْتُ مِنَ الزَّمانِ بِكَربَةٍ
وَرَجوتُ ما قَدْ نابَني أنْ يَنجَلي
ما أنْ وَصَلْتُ إلى زمانٍ آخَرٍ
إلا بَكَيتُ على الزَّمانِ الأولِ

وعظم الأمر على الناس ، ووقعوا بين وسواس وخناس ، فعند ذلك تشمَّر الحاج حسين آغا العزب آغاسي ، وقال : أعينوني بقوة معشر الرجال ، أنا أكفيكم اليوم ما دهاكم ، وأطرد فتاح بك عن ذراكم ، ونمنع جميع الدواشي عن دخول البلد ، ولا ندع منهم والدً ولا ولد ؛ لأنهم مادة الفساد ، وسبب لعذاب العباد . فلبى دعوته كل مفسد فتان ، وأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فاجتمع عنده الخلق ليلاً ؛ لينالوا من عدوهم نيلاً :

أمورٌ تَضْحَكُ السفهاءُ منها
ويَبْكي مِنْ عَواقِبِها اللبيبُ

ثم أرسل العزب آغاسي رسلاً إلى فتاح بك المذكور ليبلغوه بهذه الأمور ، وقالوا له : قد تضجر منك أهل ماردين فاخرج أنت ومن اتبعك من الغاوين . فخرج المذكور في الحال بمن معه من الرجال ، فلما أصبح الصباح ، وأضاء بنوره ولاح ، أقبلت الهارونية ليدخلوا على عجل ، وزعموا أن عدوهم فتاح بك قد ارتحل ، فمنعهم العزب آغاسي عن الدخول إلى البلد ، وقال : أنتم أيضاً من أهل الفساد والنكد . فعادوا من فورهم خائبين ، وأخذوا بمحاصرة ماردين .

وفي تلك الأيام مات علي باشا واستولى مكانه سليمان باشا [١١٥] فعرض أهل ماردين حالهم للوزير ، وأعلموه بما جرى على الصغير والكبير ، فعند ذلك أرسل منشوراً إلى أهل ماردين بأن يطردوا كافة الداشيين ، وكلُ من أدخلهم في الحكم من الحكام فهو خارج عن الحدود والأحكام ، ففرح بذلك الخاص والعام ، وزعموا أنهم يتم لهم ذلك على الدوام ، وزبروا ذلك في السجل ، وقيدوه وأكدوه بالأيمان الغليظة وأبروه ، وذلك في غرة محرم سنة ١٢٢٣ .

ثم إن الحاكم عثمان آغا توجه نحو برية ماردين لتأديب بعض المفسدين ، فتوفي في ذلك المسكين ، بقرية حرّين ، وذلك في ذي الحجة يوم الخامس والعشرين سنة ١٢٢٤ ، وبقي أهل ماردين كرأس بلا رجل ، أو كأنثى بلا رجل ، وكان مدة حكمه خمسة أشهر .

ثم حكم أحمد آغا الدنس الملقب بأبي دبس ، فإنه لما دخل ماردين بسوء نية ، وافق في الباطن داشية الهارونية ، فجعل يراسلهم ويحرضهم على الحرب والقتال ، وتبعهم العمريانية وبعض أكراد الجبال ، وكانوا يأتون كل يوم خارج باب السور للحرب ، ويقع بينهم وبين أهل البلد طعن وضرب ، وكان رؤساء البلد

---

(١١٥) وذلك سنة ١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م وقد تولى سليمان باشا حكم بغداد من هذه السنة التي قتل فيها علي باشا ولم يمت كما ذكر المؤلف ، وبقي في الحكم حتى قتل هو الآخر سنة ١٢٢٥ هـ ١٨١٠ م .

ثلاثة في ذلك الخبط ، وبيدهم الحل والربط ، الأول: شيخي زاده عبد الرحيم آغاى، والثاني : آغاسي الحاج حسين آغا ، والثالث: الحاج أحمد البيرقدار ، وكان زمرة التجار ، وامتد الحرب بين الفريقين نحو خمسة أشهر ، إلى أن دخلوها ليلاً كما سنذكر ، وذلك أن كل حارة كانت تحرس سورها ، ولم يكن للمدينة حاكم يدبر أمورها ، فحدث خيانة من خضر الكاسم ، وهدم السور ذلك النادم ، فدخلت العساكر من حارة الديرية ، ودخل البلد جملة الهارونية ، وفرح بقدومهم أبو دبس وخضر آغا المخين ، والله لا يهدي كيد الخائنين ، وشنوا الغارة على الأسواق ، ونهبوا ما فيها ، ثم نهبوا بيت العزب آغاسي ، وحارة التكية وما يليها ، ثم نهبوا حارة المشكية ذلك النهار ، وقتلوا رأسهم الحاج أحمد البيرقدار ، وتحصن أهل القلعة منهم ، ولم يسلموهم ، وإذا دنوا من باب القلعة كانوا يرجموهم ، واغتفلت الأكراد بنهب الأموال ، وسلب الأثقال والأحمال ، فتضرع الخلق لمولاهم لما أهمهم ودهاهم ، فكم من حامل وضعت ، وذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، وأخذوا كل ما وجدوه من الأقمشة والفرش والنحاس ، وسلبوا ما كان عليه الناس من اللباس ، وكلهم من قرود العمريان ، وأسود اتخوم وقرندلان ، وكلاب رشمل ، وذئاب قبالا ، وخنازير بلأبيل وغيرهم . وقبضوا على عبد الرحيم آغا وحبسوه ، ثم بعد ذلك قتلوه ، ووافقهم العزب آغاسي خوفاً منهم ، وكان دخولهم من السوريوم الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ١٢٢٣ .

ثم إن أهل القلعة مكثوا في المحاصرة أربعة عشر من الأيام ، وأدركهم شهر الصيام ، ولم تطمئن قلوبهم من الهارونية ، فراسلوا فتاح بك ومن ذكرنا في وقت العشية ، وصعدوا السور وحماهم أهل القلعة ، وارتكبوا هذه الرذالة والشنعة ، فانهزم أبو دبس ومن تبعه من الأتباع ، وتبعه العزب آغاسي ، وجملة الدواشي ، وتركوا المتاع ، وشرع العسكر بالنهب والغارة ، واستطالوا على كل حارة ، ونهبوا كل عزيز وذليل ، ولم يفلت من يدهم سوى القليل ، وتشمر لمعاونتهم

بعض المفسدين من أهل ماردين ، وتشاوروا معهم في نهب الفقراء والمساكين ، كما قيل :

قدْ وقعَ الصلحُ على غُلّتـي
واقتسموها كـارة كـاره
لا يـدبـر البقـال إلا إذا
تشارك السنور والـفـاره

وكان النهيب الثاني يوم التاسع من رمضان سنة ١٢٢٣ ، وكان استيلاء أبو دبس أحمد آغا في محرم سنة ١٢٢٣ ، ومدة حكمه عشره أشهر .

ثم حكم العزب آغاسي الحاج حسين آغا ، وذلك أنه لما اتصلت أخبار النهيب للوزير سليمان باشا فوض الحكومة للمذكور ؛ لأنه كان طالباً لها من قبل هذه الأمور ، فأتته البشارة ، وكان وقتئذ من المنهزمين ، فدخل المدينة وشرع بتأديب المفسدين ، فكم من نفوس أهلك وأتلف ، وكم من قلوب أرعب وخوف ، وكم من سياط ضرب ، وكم من أموال أخذ وسلب ، وكم من أعراض هتك ، وكم من دماء سفك ، وكم من أناس نفي عن البلد ، وكم من رجال انهزم بلا عدد ، وكم من أنوف قطع وأرغم ، وكم من آذان بتر وقلّم ، وكم من لحاء حلق ، وكم من أفئدة حرق ، وكم من أبطال خنق وصلب ، وكم من رجال حبس وضرب ، وكان يجلب أمراء العشائر بالأمان والأيمان ، ويقتلهم في ذلك الزمان ، فمنهم أمير الغرس عبد الله آغا ، وزور مصطفى آغا أمير العمريان ، والتفنكچي باشي عبد الفتاح بك ، وأمير الكيكية أحمد الملا علي ، وأمير الكيكية عبدي آغا ، ورجل من جبابرة الشرس يقال له : الكلّك ، وإبراهيم العلاف الحسباشي وغيرهم ، وأمر بذبح أربعة وعشرين رجلاً من الداشية وبلابيل كانوا محبوسين في القلعة ، وصلب رجلين من البلد على باب القلعة ، ونصب خارج الأبواب أخشاباً للصلب ، بحيث أن من رآهم كان يرتجف منه القلب ، وأتاه نحو ألفي مقاتل من

الوزير فسلطهم على قرية رشمل وبلابيل ؛ لأنهم كانوا أشد الخلق نَهباً للبلد ، فقتلوا نحو خمسين رجلاً من القريتين ، وأسروا من نسائهم وأطفالهم نحو مائتين ، ثم فكهم الحاكم بمقدار من الدراهم ، وانتزع القلعة من يد أهلها بالخدعة ، وهو أول من ابتدع هذه البدعة ، ووضع بِها عسكراً من برطلية بغداد ، وهذا هو السبب لخراب هذه البلاد ، والآن قد استولى على ديارها الخراب ، وصاح على أرجائها البوم والغراب ، كما قيل :

زرتُ الديارَ عن الأحبةِ سائلا

ورجعتُ ذا أسفٍ ودمعٍ سائلِ

ووقفتُ فِي ظلِ الأراكةِ قائلا

والربعُ أخرس عن لسانِ القائلِ

وكان تسليم القلعة من يد أهلها يوم السادس عشر من شهر صفر سنة ١٢٢٤ ، وخرج الوزير سليمان باشا من بغداد وتوجه لهذه البلاد ، وصعد القلعة ، ونزل ، وتوجه لدياربكر على عجل فحاصرها ، ولم يظفر منها بمراد ، وعاد ثانياً نحو بغداد ، فودعه الحاج حسين آغا إلى نصيبين ، وعاد مسموماً إلى ماردين ، وتوفي في جمادى الأولى يوم الخامس والعشرين سنة ١٢٢٤ ، ومدة حكمه ستة أشهر وعشرة أيام .

ثم حكم محمد سعيد آغا فأتاه منشور الحكومة وهو بالبرية ، وأقبل إليه بالطاعة المنهزمون من الداشية ، وعصى عليه درويش آغا أخو الحاج حسين آغا ، وكان له طمع بحكومة ماردين ، فتبعه بالعصيان بعض المفسدين ، فأظهر الجلادة لدفع الحاكم والداشية ، إلا أن القلعة كانت بيد البرطلية كما قيل :

وتجلّدي للشامتينَ أريهُمُ

أنــي لرَيبِ الدّهرِ لا أتضعضَعُ

وإذا الـــمنـــيةُ أنشَبَتْ أظفارَها

ألـــفـــيتَ كُـــلَّ تَميمةٍ لا تَنفَعُ

فلم يجد درويش آغا مجالاً للمفر ، وجعل يقول يومئذ : أين المفر ؟ فتوجه نحـــو البرية ، فأرسل عليه الحاكم من عفاريت الملية وشنوا الغارة على المذكـــور تلـــك الساعة ، وقتلوه وتفرق من كان معه من الجماعة ، فارتاح الحـــاكم وصفـــى لـــه المشرب ، وحصل له بقتله المرام والمطلب ، كما قيل :

لا يَسلَمُ الشرفُ الرفيعُ مِنَ الأذى

حتى يُـــراقَ على جوانبِهِ الـــدَّمُ (١١٦)

وكان قتل المذكور يوم الثانـــي والعشرين من رجب سنة ١٢٢٤ ، ولما كـــان درويش آغا بماردين كان قد تبعه بالعصيان بعض المساكين ، فهاجروا عـــن البلـــد باتصال الخبر إليهم ، ثم عادوا بعد زمان حبواً علـــى يديـــهم ، ثم أقبـــل الحـــاكم والدواشي ، ودخلوا البلد فلم يتجاسر أن ينازعهم بالدخول أحد ، وفي أيامه أقبـــل من الدولة حالتـــي أفندي رئيس الكتاب ، وكان قد أرسله السلطان لقطع بعـــض الرقاب ، وقبض على سليمان باشا وقتله بعد حروب كثيرة وأرســـل برأســـه إلى الدولة الخطيرة ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٥ (١١٧) ثم نصب مكانه عبـد

(١١٦) البيت لأبي الطيب المتنبي من قصيدة مطلعها :

لهوى النفس سريرة لا تعلم          عرضاً نظرت وخلت أنـــي أسلم

(١١٧) يرى بعض المؤرخين أن هذا الوالي كان مـــن المتأثرين بدعوة الشيخ محمـــد بـــن عبـــد الوهاب رحمه الله السلفية ، ذلك أن الشيخ المحدث علي بن محمد السويدي ( ت ١٢٣٧ هـــ ) دعاه إلى الالتـــزام بـــهذه الدعوة فاستجاب له الوالـــي ، لذلك قرر السلطان محمود الثانـــي العثمانـــي التخلص منه ، وانظر ( أعيان القرن الثالث عشر ) لخليل مردم بك ، ط٢ ، مؤسســـة الرسالة بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٦٥ ، وكـــذلك ( داود باشا ) للدكتور عبد العزيز ســـليمان نوار ، ص ٤٧ ، وفيه أن المبعوث السلطانـــي للتخلص من والـــي بغداد هو خالد أفنـــدي . وفي ( مطالع السعود ص ٢٧٢ ) أن المبعوث هو حالت أفندي المعروف بالرئيس لكونه رئيساً للديوان

الله باشا وزيراً ببغداد [118] ، وعاد نحو القسطنطينية بنيل المراد ، وسعى بين محمد سعيد آغا وبين عبد الله باشا بعض المفسدين ، فأرسل أمراً بحبسه في قلعة ماردين ، فحبسوا المذكور في الحال ، وضبطوا ما كان عنده من المال ، وذلك يوم الخامس والعشرين من جمادى الأخرى سنة ١٢٢٧ ، وكان استيلاؤه في جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ ، وحكم (٣) سنوات .

ثم حكم عمر آغا أبو ندر الأربلي ، وكان قد وقع في الأسقام وبلي ، فضيق على محمد سعيد آغا وآذاه ، وجرعه كؤوس المحن ، وسقاه وأخذ جميع ما كان له من الأموال ، وقبض على أحزابه من الرجال ، وكان قد عزم على قتله في تلك الأيام ، فمات أبو ندر ونجا محمد سعيد آغا بسلام ، كما قيل :

فــثــقْ بالإله ولا تَخَفْ من ظالَمٍ
كَــمْ مِنْ مُــريدكَ والإلهُ يُريدُ
إنَّ الرشيدَ نوى لــهُ الهادي الردى
فتَجَندَلَ الهادي وعــاشَ رشيدُ

وذلك أن أبا ندر توجه لأمر نحو نصيبين فأدركه الأجل في ذلك الحين ، وذلك يوم السابع من شوال سنة ١٢٢٧ ، وكان حكمه ثلاثة أشهر .

ثم إنَّ محمد سعيد آغا طلبه عبد الله باشا إلى بغداد فنزل عن القلعة ولزم طريق السداد ، فالتقى على نصيبين بجنازة أبو ندر وصادفه ميتاً كمن صادف ليلة القدر ، وكان قد وضعه أخوه يونس آغا في تابوت كما هو دأب من يموت ، وحملوه إلى بلدة إربل ، وساروا ومعهم محمد سعيد آغا حيثما داروا وأنشد المذكور حينئذ وقال وحمد الله على تلك الحال :

---

السعود ص ٢٧٢ ) أن المبعوث هو حالت أفندي المعروف بالرئيس لكونه رئيساً للديوان الهمايوني .

(١١٨) وقد حكم السنة التي قتل فيها سليمان وحتى سنة ١٢٢٨ هـ ـ ١٨١٣ م .

دعـــــي أعيش مُسَرِبلاً

بـــالخيشِ مكتَسِبَ الثنا

وأرى عـــدوي مـــيـــتاً

ومِنَ الـــحـــريرِ مكفَّنا

وأدُسُّ رجـــلـــي قَبْرَهُ

وأقُـــلْ لـــه أنـــي أنا

مَـــنْ عاشَ بَعْدَ عَدوِّهِ

يـــومـــاً فَقَدْ بلغَ المُنى

ثم حكم مرة ثانية مصطفى آغا بن صاري محمد آغـــا الكركوكـــي وفي أيامـــه استولى سعيد پاشا بن سليمان پاشا على بغداد ، وقبض على عبد الله پاشـــا وقتلـــه كما أراد [(١١٩)] ووقع في أيامه عداوة بين السركچيه وبعض الدواشي ، وسلبوا رعية الداشية ، وأخذوا ما كان لهم مـــن الحواشي ، وحاصروا المدينة وقطعـــوا عليـــها الطريق ، ثم صعدوا السور بالسلالم ، ودخلوا من كل فج عميق ، وأخرجوا بعـــض الداشية عن البلد ، ولم يقدر على منعهم أحد ، ثم قبضوا على مصطفى آغا الحـــاكم وخلعوه عن الحكم والمظالم ، وحصلوا منه حقوق الأصناف ، ولم يراعـــوا في حقـــه بالإنصاف ، فتوجه المسكين نحو الوزير وقلبه بشهيق وزفير ، وذلك فـــــي ربيـــع الآخر سنة ١٢٢٨ ، ومدة حكمه ستة أشهر .

ثم حكم مرة ثانية محمد سعيد آغا ، ووقع في أيامه خبط وخلل ، وعظم الخطـــب والزلل ، بعضه من داخل البلد ، وبعضه من أكراد الجبـــل ، فشـــرع المذكـــور في المدارات معهم والسلوك ، وأزال عن قلوبهم الأوهام والشكوك ، فتـــارة يعاملـــهم معاملة الحكام والملوك ، وأخرى يريهم كأنه عبد لهم ومملوك :

(١١٩) وكان ذلك سنة ١٢٢٨ هـــ ١٨١٣ م وبقي سعيد پاشا في الحكم حتى ســـنة ١٢٣١ هـــ ١٨١٦ م حيث قتل وتولى الحكم مكانه داود پاشا .

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أنْ يرى
عَدواً لهُ ما مِنْ صداقَتِهِ بُدُّ (١٢٠)

فلما لم يجد من معاداتهم الراحة ، ولم يكفوا عن الخبث والوقاحة ، شمَّرَ عن عزمه الماجد ، وقتل سبعة من أعدائه في آن واحد ، منهم ملي زاده إسماعيل بك وأخوه بوز بلك ، وعمر البيرقدار ، والحاج أبو زيد ، وثلاثة أخر من أعوانهم ، وأرسل برأسهم إلى بغداد ، وزعم أنه استراح من الأنكاد ، كما قيل :

كأطيب الطيِّبات قتلُ الأعادي
واختيالي على متونِ الجيادِ
ورسولٍ يأتي بوعدِ حبيبٍ
وحبيب يأتي بلا ميعادِ

ثم إن محمد سعيد آغا توجه لأمر نحو قوجحصار ، فوقعت البلدة من بعده في الحصار ، وذلك أن أكراد السركچيه كان لهم عداوة مع الداشية ، فوجدوا الفرصة عليهم وتوجهوا بالعساكر إليهم ، وكان قد تبعهم أكراد جبل العفص ، وأكراد الدنبلية ، وأكراد البهرمكية ، وأكراد العمريانية ، وأحاطوا بالبلد من كل جانب ومكان ، وذلك في أواخر شهر رمضان ، وأجمعوا على أن يخرج الداشية عن البلد ، ولا يبقى منهم والد ولا ولد ، وإن مكث منهم أحد في ذراها ، هجمنا عليها ونهبناها ، واشتعل بينهم وبين أهل البلد نيران الحرب ، وعظم الطعن والضرب ، فعند ذلك أمر الحاكم بخروج الداشية في الحال ؛ ليبطل ذلك القيل والقال ، فخرجوا يوم الثالث من شوال سنة ١٢٣٠ .

ثم توجه الحاكم من قوجحصار بأعوانه وجلس في مقره ومكانه ، وراسل أمراء السركچيه ، وطلبهم إلى ماردين ، فتوجهوا وهم فندي وتيمور ومصطفى

(١٢٠) البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها :

أقل فعالي بله أكثره مجد    وذا الجد نلت أم لم أنل جد

الشمدين ، وأضافهم عنده ثلاثة أيام وعزم على قتل هؤلاء الطغام ، فأعلمهم بذلك بعض اللئام ، ولم يظفر منهم بمقصد ولا مرام. وذلك أنه لما أحس السركچيه بذلك ، وأيقنوا بوقوعهم في ورطة المهالك ، عزموا على الفرار لما فعلوه من قبل ، وملسوع الحية يخاف من جذب الحبل ، فمنعم عن الهزيمة علي آغا بن بوز ، والخزندار ، وخضر آغا التفنكچي باشي وغيرهما من الحضار ، ووافق السركچيه وأجمعوا على عزل المذكور بعدما كانوا يدبرون له الأحكام والأمور ، كما قيل :

أعدى عدوّكَ أدنى من وثقتَ به
فحاذرِ الناسَ و اصحبهمُ على دخلِ
فإنما رجل الدنيا وواحدها
من لا يعولُ في الدنيا على رجلِ

ثم إن الحاكم لما لم يظفر بأعدائه ، وشاهد الخيانة من أنصاره وأوليائه ، ولم يجد نفقاً في الأرض ولا سلماً في السماء ، ركب جواد العزيمة وصعد للقلعة الشهباء ، وكان فراره يوم السابع عشر من شوال ، ومكث في المحاصر عند البرطلية خمسة أشهر على التوال ، وبسط الأكراد بالبلد بساط الإقامة ، إلى أن وقعوا في الحسرة والندامة ، ثم إن محمد سعيد آغا نزل من شمال القلعة ، وتوجه سالماً إلى بغداد ، ولم يظفر الأكراد منه بمراد ، وذلك في ربيع الأول سنة ١٢٣١ ، وكان استيلاؤه في ربيع الآخر سنة ١٢٢٨ ، ومدة حكمه سنتان .

ثم حكم يونس آغا الإربلي ، أخو عمر آغا أبو نَدِر ، فلما قدم المذكور إلى ماردين وجدها بيد الأكراد وغيرهم من المفسدين ، فوافقهم على الغي والطغيان ، وبقي بيدهم كالحمار في يد الطحان ، وشرع معهم في معاداة الحاكم السابق ، واستولى على ما لَه من صامت وناطق ، وجعل يداري مدة مع الأكراد ، إلى أن توجه محمد سعيد آغا إلى بغداد ، ثم إنه عزل خضر الكاسم عن التفنكچيباشية ونصب مكانه تيلي آغا أمير الدنبلية ، وكل ذلك بأمر أمراء السركچيه ، وما

فعلوا ذلك إلا على رغم الداشية ، ثم إن يونس آغا تضـرع بـين يـدي هـؤلاء الصناديد ، وقال : اذهبوا إلى أماكنكم لا حكم كما أريد ، وقد تعطلت الحكومـة من أول الشتا ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فامتنع أمراء السـركچيه عـن الخروج ، وقالوا : لن نخرج والسماء ذات البروج ، فلما لم يجد من خروجهم بـداً ، وقال : لقد جئتم شيئاً إداً ، صعد القلعة ونجى من ذلك الضنك ، وأرسل عليـهم صاعقة المدافع والتفنك ، ثم راسل المذكور علي آغا الإبراهيم أمير الملية ، وراسـل خليل أمير العمريان ، وكان عنده جملة الداشية ، فأقبلوا يهرعون إليه مـن كـل مكان ، منهم رجال ومنهم ركبان ، فخرج السركچيه إليهم من بـاب الجديـد ، ووقع بينهم وبين الملية حرب شديد ، ولم تزل نـيران الحرب تشـب والرصـاص بينهم يهب ، والمدافع من القلعة تدب ، والرجال عن أنفسها تذب ، وإذا بعسـكر العمريان قد أقبل من باب الصور ، بعضهم دخل الباب وبعضهم صعد من السـور . وأخذوا ظهر السركچيه من ورائهم ، وهموا بأن يقبضوا على أمرائـهم ، وبقـي السركچيه عند باب الجديد بين العسكرين ، وشاهدوا ملاك المنـية رأياً بـالعين ، وصار أمامهم جب غميط ، ومن ورائهم زب غليظ ، فقهقروا نحوا الباب ، وولـوا الأدبار ، وتحصنوا بمسجد الشيخ محمد الضرار .

الـحـرب أول ما تكون فتـيةً

تسعى بزينتها لـكـل جهـولِ

حتى إذا اشتعلَتْ وشبَّ ضرامها

ولَّـتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ خليلِ

شـمـطاء يُنكَرُ لونُها وتَغَيَّرتْ

مـكـروهةً للـشـمَّ والتَّقبيلِ

وأحاطوا بالمسجد من كل مكان ، وقتل من الفريقين نحو خمسين إنسان ، وقتـل في تلك المعركة علي آغا بن بوزو عند الحمام ، وجرح تـيمور آغـا السـركچي ،

وتوفي بعد سبعة أيام ، وغنموا خيل السركچيه وسلاحهم ، وكاد أن يسلب أرواحهم ، وإذا بالمدد من رجال المشكية ، وذبوا عن المسجد عسكر العمريان والملية ، فوجد السركچيه لهم طريقاً إلى الفرار ، فتوجهوا لأماكنهم ذلك النهار ، وكانت هذه الوقعة يوم السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ١٢٣١.

ثم إن يونس آغا نزل عن القلعة في اليوم الثاني ، وقد عوَّذ نفسه بالسبع المثاني ، وجمع الدواشي حوله وفرح ، ولم يعلم أنه سيفتضح .

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوّلِهِ
إنَّ الحوادثَ قدْ يَطرقْنَ أسحارا
لا تَأمَنَنْ بليلٍ طابَ أوّلُهُ
فربَّ آخرِ ليلٍ أوجبَ النارا (١٢١)

ثم إن السركچيه لما ذهبوا إلى أماكنهم ، وتوفي منهم تيمور ، أقبلوا بجمعهم نحو البلد وهدموا السور ، ولم يتعرض لهم أحد من أهل البلد ، لما شاهدوا من الداشية من الظلم والكمد ، فشنوا غاراتِهم ليلاً على الحاكم والدواشي ، فانهزم الجميع وتركوا الأموال والمواشي ، ونهب السركچيه بيوت الداشية وأموال الحاكم ، وعادوا مسرورين بالأموال والغنائم ، وذلك في أواخر محرم الحرام سنة ١٢٣٢ . وفي أيامه استولى الوزير داود باشا على بغداد (١٢٢) ، وقتل سعيد باشا بن سليمان باشا ، وكان مدة حكم يونس آغا سبعة أشهر .

---

(١٢١) البيتان لمحمد بن حازم الباهلي ( ت ٢١٥ هـ ) .

(١٢٢) هو من أشهر ولاة بغداد العثمانين وأكثرهم شعبية ، ولد حوالي سنة ١١٨٨ هـ ١٧٧٤ م من أسرة گرجية نصرانية ، جاء إلى العراق مملوكاً في العاشرة من عمره اشتراه مصطفى الربيعي وباعه إلى سليمان باشا الكبير وتربى عنده ، كان متقد الذكاء مولعاً بالعلوم وقد تلقى علومه من كبار علماء بغداد حتى نال الإجازة العلمية من بعضهم ، أسند إليه سليمان الكبير منصب ( الخزندار ) ، ثار على والي بغداد سعيد باشا سنة ١٨١٧ م واستطاع أن يزيحه عن

ثم حكم الكرجي عبد القادر آغا ، وكان من أهل الجور والعدوان ، ولم نسمع بمثله من قديم الزمان ، ووافق بين السركچيه وبعض الدواشي ، ونصب حسين بن سالم له تفنكچيباشي ، وكان استيلاؤه في جمادى الأولى سنة ١٢٣٢ ، ومدة حكمه سنة .

ثم حكم مرة ثالثة محمد سعيد آغا ، وأرسله الوزير بالعساكر لتأديب بعض العشائر ، فلما قدم وأناخ على قوجحصار ، واستدعى لطاعته الكبار والصغار ، فلبى دعوته العشائر طراً ، وانقادوا مذعنين إليه جهراً ، سوى السركچيه ، فإنهم بادروا بالعصيان ، لما جرى لهم من العصيان مع يونس آغا من سالف الزمان .

كالملسوع يخشى الحبل دهراً

ويزعم أن ذاك الحبل أفعى

فانتقل العسكر وضرب خيامه برأس الميدان ، ثم ارتحل نحو السركچيه حتى أناخ على طزيان ، وكان مجموع العسكر عشرة آلاف من غير شك في تعداده ولا خلاف ، وكلهم من عشائر ماردين والموصل والكردان ، وكلهم كانوا معدودين من الأبطال والفرسان ، إلا إنهم لم يساعدهم الجاه ، ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ [١٢٣] .

---

الحكم ليصبح هو آخر ولاة بغداد من المماليك ، كان محباً للعلماء محبوباً لديهم ، أزيح عن الولاية سنة ١٨٣١ م وتولى علي رضا ولاية بغداد خلفاً له في حادثة تقرأ تفاصيلها في صفحات قادمة من هذا الكتاب ، وبعد إعفائه من ولاية بغداد استقر في استانبول ثم ولاه السلطان ولاية البوسنة ( ١٨٣٣ ١٨٣٥ م ) ثم ولاية مجلس الشورى ( ١٨٣٨ م ) ثم تولى أنقرة ( ١٨٣٩ م ) وعزل بعد عام ، ثم طلب داود أن توجه إليه مشيخة الحرم النبوي فنال ما طلب ، وظل هناك حتى توفي سنة ١٢٦٧ هـ ـ ١٨٥٠ م ودفن بالبقيع . للتفصيل راجع ( داود باشا والي بغداد ) للدكتور عبد العزيز سليمان نوار .

(١٢٣) سورة آل عمران من الآية ١٢٦ ، وسورة الأنفال من الآية ١٠ .

إذا لـم يعنك الله فيما ترومـه

فليس لـمـخـلوق إليه سبيلُ

وإن هو لم يرشدك في كل مسلك

ضللتَ ولـو أن السماك دليلُ

وقال آخر :

إذا لم يكن عون مـن الله للفتى

فأكثر ما يجنـي عليه اجتهاده

فاهتز لقدوم العسكر الثرى ، واجتمع كافة السركچيه ومن تبعـهم في ثـلاث قرى ، بعضهم بالعيون وبعضهم ببارمان ، ومصطفى الشمدين ومن تبعـه بقريـة طزيان ، فأناخ العسكر بطزيان بين التلال ، وبادروا بالحرب والقتـال ، والتقـت الرجال بالرجال ، والأبطال بالأبطال ، فوقعت الهزيمة على عسكر الحـاكم قبـل الزوال ، وتركوا المدافع والخيام والأموال ، وذلك يوم الثامن عشر مـن شـهر شوال ، سنة ١٢٣٣ ، وقيل : السبب في ذلك خيانة الملية وإعانتـهم للأكـراد ، فقبض الحاكم على أميرهم علي آغا اليوسف ، وأرسله إلى بغداد ، فعاتب الوزيـر لذلك المخين ، ثم عفا عنه بعد عام وأرسله إلى ماردين ، وكان زمام العسـكر بيـد ثلاثة من الرؤساء ، أحدهم رئيس العسكر عثمان بك بـن عبـد الرحمـن پاشـا الكردانـي ، والثانـي مصاحب الوزير سليمان بك فخري زاده ، والثالث محمـد سعيد آغا ، أما عثمان بك وسليمان بك فإنهما توجها نحو بلادهما ، وأما محمد سعيد آغا فإنه شيع العسكر وآب ، ودخل ماردين ليلاً من الباب ، وجلس في مقر الحكم كالأول ، وأعرض عمَّا كان عليه عوَّل ، ثم شرع في المـدارات مـع السـركچيه وغيرهم ، وقنط من نفعهم وخيرهم ، كما قيل :

فَدارهم ما دمتَ في ديارهم

وأرضهم ما دمتَ في أرضهم

وطفق يعالجهم بهذا العلاج ، ويجبر ما انصدع من زجاج المزاج ، حتى نصب لختان ولده يحيى آغا زينة ، واستدعى بأمراء السركچيه إلى المدينة ، واتخذ أفندي آغا السركچي لولده كريباً قريباً ، وصار له شاة ما كان له ذئباً ، وطاب بصلحهم عيش الزمان ، وصارت السبل براحة وأمان ، ثم أمر الوزير بعد سنة بعزله فارتحل إلى بغداد ، وانتقل عن أهله ، وذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٣٤ ، ومدة حكمه سنة .

ثم حكم السلاحدار أحمد آغا ، ومما حدث في أيامه من العجائب والوقائع ظهور هدة في السماء لها صوت كصوت المدافع ، ولم يكن في السماء علة ولا دخان ، وذلك في أواخر رمضان سنة ١٢٣٤ . ومنها أنه أظلمت الدنيا في النهار ، ثم عقبها رعد وبرق وأمطار ، وذلك يوم الثالث وعشرين من تموز ، والعارف تكفيه الإشارة والرموز . وولد للسلطان محمود خان ولد سماه عبد المجيد خان ، وذلك في شهر ذي الحجة من عام أربعة وثلاثين ومائتين وألف ، وانتشرت البشائر في البلدان ، وترنم الزمان بهذه الألحان :

بشرى فقد أنجزَ الإقبالُ ما وعدا
وكوكبُ المجدِ في أفق العُلا صعدا
و قد تفرع في أرض الرئاسة عن
روح الخلافةِ غصنٌ مورق رشدا
لله أيةُ شمسٍ للعُلا ولدتْ
نجماً و غابةُ عزٍ أطلعتْ أسدا
وبضعةٌ من بني عثمانَ قد طهرتْ
أصلاً وفرعاً وصحت لِحمَةً و سُدا
ومثل هذي السعادات القوية لا
يحوزها غيره دامت له أبدا

يـــا دهـــره حقَّ أن تزهو بمولده

فمثله مـــذ كان الدهر ما ولـــدا

يـــا خجلة العيد لما كـــان مولده

فيه تَخَفَّى هلال العيد حين بـــدا

فكم موالٍ يـــوالـــي الحمد مبتهلا

و مخلص يستديـــم الشكر مجتهدا

وكادت الغادة الهيفاء مـــن طرب

تعطي مبشرها الإرهـــاف والغيدا

فلا رعى الله نفساً لـــم تُسَرَّ بـــه

ولا وقـــاهـــا وغشَّاها غشاءَ ردا

وأرفع المجد أعياناً و أســـمَـــعُـــهُ

مجدٌ يناسبُ فيه الـــوالـــدُ الولدا

بشرى لسيدنا السلطان فـــي ولدٍ

مباركِ الاسمِ معدودٍ مـــن السعدا

فـــواجب أن يقولَ الناس قـــاطبة

الحمد لله شـــكراً دائـــمـــاً أبـــدا

وانـــهزم في أيام المذكور كافة الداشية ؛ لخوفهم من أمراء السركچيه ، ولم يبـــق منهم سوى التفنكچيباشي خليل آغا ، فقدم مصطفى الشمدين آغـــا الســـركچي وحاصر البلد يوماً وليلة إلى أن أخرج خليل آغا عن البلد أيضاً ، ولم يكن الحـــاكم حينئذ داخـــل البلد ، وتحصن بعض الداشية بدير الزعفـــران ، وبعضـــهم بقريـــة بلابـــيل ، وذلك بأمر أمير العمريان ، وتولى خضر آغا منصب التفنكچيباشـــية ، وكان خروج الدواشي عن ماردين أول يوم من طباخ ، والخامس والعشرين مـــن شوال سنة ١٢٣٤ ، ثم عادوا ثانـــياً برضا العشائر إلى ماردين ، وتولى خليل آغـــا

منصب التفنكچيباشية أيضاً ، وكان عودهم يوم الخامس من كانون الثاني ، والثاني من ربيع الآخر من عام ١٢٣٥ ، وأمر الحاكم بصلب السابق أوده باشي محمد سعيد بن علي آغا الجوزي ، فصلب بسوق الحنطة يوم الخامس من ذي القعدة سنة ١٢٣٤ .

وكان بين أمراء السركچيه وأمير العمريان عداوة من أيام يونس آغا الحاكم فتصالحوا في قرية قبالا في غرة ذي القعدة وذلك من بعد وفاة أفندي آغا أمير السركچيه .

ثم إن الحاكم المذكور وقع بينه وبين أمير الملية علي آغا الإبراهيم عداوة وافرة ، فعزل علي آغا من الإمارة ونصب على الملية علي آغا اليوسف ، وجهز الحاكم عسكره بقوجحصار ، وتوجه لتأديب علي آغا الإبراهيم ، وكان إذ ذاك بقرية عامودا ، فأناخ بعسكره عليها ، ووقع بين الفريقين حرب عظيم ، فتوسط بعض المصلحين ، فعزل الحاكم علي اليوسف ونصب أحمد النعمان وعادإلى ماردين . ثم إن علي آغا الإبراهيم قبض على أحمد النعمان وحبسه ، وأرسل إلى الحاكم يطلب لنفسه الإمارة ، فاضطر الحاكم إلى ذلك ، فأرسل له خلعة الإمارة ، والأمور مرهونة بأوقاتها .

وفي أيامه وقع بين أهل دياربكر ووزيرهم بهرام پاشا حرب عظيم ، وتفرقت عشائرهم فرقتين ، فرقة تابعت الوزير كأيوب بك بن تيمور پاشا إسكان باشي الرها ، وتيلي بك أمير لجى ، وفرقة تابعت أهل البلد كتيمور بك أمير حينى [ هينى ] وغيره ، أما العشائر فإنهم نهبوا جميع القرى من خارج البلد ، وأحاطوا حولها ، وأما الوزير فإنه تحصن بعسكره في القلعة وجعل يحارب بعضهم بعضاً ، وجعل الوزير يرسل عليهم صاعقة المدافع والتفنك من القلعة ، ويضع الصخور في المدفع ويضربه إلى البلد ، ووزنوا بعض الصخور فكانت بوزن قنطار ، وتساوى الليل والنهار من ظلمة الدخان ، وعرض كل من الفريقين حاله إلى الدولة العلية ،

فرجع الجواب بتأييد الوزير ، فحينئذ طلب الوزير خمسة نفر من رؤساء البلد وهم: محمد بك شيخ أوغلي زاده حفيد إبراهيم باشا ، وأخوه الحاج بكر بك ، وابن قره خوجه ، والمفتي مسعود أفندي ، والقاضي ، فلم ينقادوا لمطلوبه ، وامتد الحرب بينهم من يوم الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٤ ، إلى ثلاثة أشهر ونصف ، حتى ضعف حال الفريقين وقتل نحو ستمائة نفر تقريباً ، ونفد عنهم الزاد والذخائر حتى احتاج الأغنياء إلى السؤال ، إلى أن خرج هؤلاء الخمسة عن البلد ، وأعطى الوزير العهد والأمان لأهل البلد ، وختم لهم المصحف وأرسله إليهم فسلموا أمرهم إليه كارهين ، فنقض العهد وشرع في الظلم حتى انهزم من كان من أهل البلد ، ولم يبق إلا القليل ، فجعل يظلم الفقراء والغرباء والنساء ، ولم نسمع بوقوع مثل هذه الفتنة بدياربكر منذ دخلت تحت حكم آل عثمان ، ومثلها وقع في هذا العام أيضاً بين أهل حلب ووزيرهم خورشيد پاشا واستولى على حلب عنوة ودخلت تحت قبضته بعد المحاربة في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٣٥ .

ولنرجع إلى ذكر الويوده أحمد آغا فإنه وقع بينه وبين التفنكچيباشي خليل بغضة ووحشة ، فخاف كل منهما على نفسه ، فسبقه خليل بأدنى حجة وسلط عليه أكراد السركچيه ومن يلوذ به من الداشية ، وهجموا على السراي ونهبوه عن بكرة أبيه ، وانهزم أحمد آغا إلى القلعة بمتعلقيه ، وهذه أكبر الزلات التي صدرت من الدواشي مع الحكام - وسيأتي قريباً تتمة الكلام - ومدة حكمه سنة .

ثم حكم من بعده العزب آغاسي داود آغا بن الحاكم السابق الحاج حسين آغا فإنه تولاها أولاً بالوكالة ، ثم تولاها بالأصالة ، وقتل التفنكچيباشي السابق خضر آغا بن كاسم آغا الديري وأخوه عبد السلام ، يوم الخامس من شعبان سنة ١٢٣٥ ، وذلك بأمر الداشية ، وقتل أحمد النعمان مع سبعة من الملية . وحدث ريح عاصفة وانهدم نحو ألف جدار ، وحدثت زلزلة بمدينة حلب ، وانهدم نحو الثلث منها ، ومات من ذلك خلق كثير ، ويقال : إن تلك الزلزلة امتدت نحو سنة بحلب

وتلك النواحي والأطراف . وأنعم السلطان على داود پاشا سكه خانه كقاعدة وزير مصر ، وضربوا عليها : ضرب في بغداد ، وتداولت بين الناس ، وكان عــزل داود آغا سنة ١٢٣٦ ، ومدة حكمه سنة .

ثم حكم الويوده السابق ثانياً عبد القادر آغا ، وكان قد أمــره الوزيــر بــأخذ الانتقام من الداشية لما فعلوه بأحمد آغا المار ذكره ؛ لأنه لما ارتحــل عــن مــاردين وتواجه مع الوزير ببغداد وقص عليه القصص ، فأخذته الغيرة وأرسل عبد القــادر آغا لتأديبهم ، فأتى وكتم أمره ستة أشهر وأقام بالبرية لتدبير هذا الأمــر ، إلى أن جذبهم إليه بالحيلة إلى قرية دنــيسر ، وأمده الوزير بشرذمة من الجيش ، واســتعان أيضاً بأمير الملية علي اليوسف آغا ، فوجد الفرصة عليهم في بعــض الأوقــات ، وجرعهم كأس الممات :

ما حيلةُ الرامي إذا التقتِ العدى

وأراد يرمي السهم فانقطعَ الوترْ

قالوا : أما احتالوا لذاكَ أجبتهم

كفوا إذا نزلَ القضا عَمِيَ البصرْ

فقتل منهم تسعة رهط بهذا التدبير ، وأرسل برأسهم إلى الوزيــر ، أحدهــم : رئيسهم التفنكچيباشي السابق خليل بن الحــاج مصطفــى بــن علــي كــهيا ، والتفنكچيباشي السابق يوسف بن علي آغا ، والتفنكچيباشي السابق أحمــد بــن الحاج محمد آغا بن خشمان ، وأخوه سليمان ، وابنه الحاج درويش ، والباقون مــن أقاربهم وأعوانهم ، وانهزم بقية الداشية الذين كانوا بماردين ، وكــان قتلــهم يــوم السبت الرابع من ذي الحجة سنة ١٢٣٦ .

وفي هذا العام حدث فتنة عظيمة ببلدة القسطنطينــية ، وذلك أن نصارى الروم راسلهم قرال أفلاق وبغدان ليكيدوا السلطان محمود ، فظفر السلطان بمكاتــيبهم واطلع على خفي كيدهم ، فأباح قتل نصارى ملة الــروم ، وقتلوهــم ، وتمــادى

السلطان بحمل السلاح فتسلح الخاص والعام ، وكل من وجدوه من الروم قتلوه ، وأرسل إلى الممالك وقتلوا كل من كان من ملتهم ، أعني الرومية ، وذلك في جمادى الآخر من العام المذكور .

وظهرت العجم على نواحي بغداد وأرض الروم وبلدة وان ، ولم يظفروا بمراد ، فتابوا عن المقاسمة واضطروا إلى المصالحة ، وأهدوا للسلطان هدايا وافرة حتى عفا عنهم وعقد معهم الصلح ، وعصى على السلطان رجل يقال له : تپدلان علي باشا ، فوجه عليه بعض الوزراء حتى قتلوه .

وظهرت ريح من طرف البصرة ، وأهلكت خلقاً كثيراً ، ثم هبت على بغداد ، ثم على العجم ، ثم على ممالك الكردان ، ثم على الموصل ، ثم على ماردين ، حتى انتهت إلى حلب وحماه وحمص وأهلكت من صادفته ، ومات نحو خمسمائة من أهل ماردين فجأة ، وامتد ذلك الوباء نحو شهر ، ومصداق ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتى تهب ريح من جانب البصرة فيهلك بها خلق كثير »(١٢٤) ، وكان هذا الوباء بماردين في شهر ذي الحجة سنة ١٢٣٧ ، وكان استيلاء عبد القادر آغا في رجب سنة ١٢٣٦ ، وعزله أيضاً في رجب سنة ١٢٣٩ ، ومدة حكمه ثلاث سنين .

ثم حكم المصرف السابق خليل أفندي البغدادي ، فإنه لما جاء إلى ماردين شرع بالإصلاح بين العشائر ، وأتى بالمنهزمين من الداشية وفوض منصب التفنكچيباشية لمحمود بك بن فتاح بك الداشي ، والأوده باشية لشيخ سليمان المشكيوي ، ووافق بينهم ، ثم إن الحاكم المذكور أمر بتعمير طابيات على السور ، وطرح قيمة التعمير على الحارات ، فكل حارة شرعت بتعمير واحدة منها وعمروها وذلك في سنة ١٢٤٠ ، ثم إنه لما وافق بين الداشية والمشكيوية جعلهم شركاً لصيد النفوس وشبكاً

---

(١٢٤) لم نجده في المراجع المتوفرة ، وإنما هناك حديث عند الترمذي من حديث أبي هريرة ( ٢٢١١ ) فيه ذكر الريح الحمراء ، لكن ليس فيه ذكر البصرة .

لنيل الفلوس ، وصار على الفرقتين كزوج ذي زوجتين ، تارة يميل إلى هذه وتارة يميل إلى هذه ، وطوى بساط المظلمة والاعتساف ، حتى تشتت أهل المدينة في البلاد ، كما قيل :

سأتركُ مَنْزِلي لبني تميمٍ

وألحق بالحجازِ فأستَريحا

ومنهم من أرسا وانتسب لأمراء العشائر ، ومنهم من تمارض وجلس في بيته ، ومنهم من كان يتضرع إلى الله تعالى خوفاً من ، حتى مد يد التعدي ، وفرض على كل حمل يدخل إلى ماردين شيئاً من المصريات سواء كان صاحب الحمل من أهل البلد أم من الأكراد أم من غيرهم ، ففرض على حمل الحمار عشرة مصريات ، وعلى البغل ونحوه عشرين مصرية ، وعلى الجمل أربعين ، وزاد على مال التجار ضعف ما كان عليهم ، وعلى كل ثوب يحوكه الحائك عشرة مصريات ، وأمثال ذلك من البدع البديعة ، والقوانين الشنيعة ، وأنشأ عقبة طرف القبلة ، تحت مرقد الشيخ صالح ـ رحمه الله تعالى ـ ، وأنشأتُ له قصيدة لعله يرعوي عما فيه فائبكم عن إسحق ولم تخرج كلمة طيبة من فيه ، فمن جملتها هذه الأبيات :

يا مالكَ الأعناقِ مَنْ ذكرُهُ

مَلأ الطباقَ و هابَهُ الأقوامُ

رفقاً بأحوالِ الرعية إنَّهُمْ

مُستَضْعَفونَ وبينَهُمْ إسلامُ

ما هذه الدنيا بدارِ إقامةٍ

هل كانَ فيها لِلأنامِ دوامُ ؟

فسرورُها أبداً يزولُ وصفوها

كدرٌ وطيبُ نعيمِها أحلامُ

والأمرُ أمـــرُكَ كيفما تختارهُ

فالعدلُ يُحمَدُ و الظلومُ يُلامُ

إنَّ الأجلةَ لا يـــليق بشأنِهم

إلا الجميلُ لأنَّـــهم أعـــلامُ

ولأنتَ أولـــى بـــالذي أمَّلتُهُ

و لأنتَ راعٍ والـــورى أغنامُ

فلما تأبط لأخذ الأموال شراً ، عافته الخلائق طراً ، غلقوا الأســـواق وقـــامت بينهم الحرب على ساق ، وقبض أهل ماردين على بعض عسكر العكيل في حـــارة باب السور ، وسلبوهم وطردوهم ، وأيضاً قبضوا على بعض رؤساء البرطلية ، فلـم يتجاسر برطلية القلعة أن يدبوا على أهل البلد خوفاً على رجـــالهم ، وتركوهـم كالرهائن ، فانحصر الحاكم المذكور بمن معه فـي السراي ، واجتمع عنـــده نحـو ثلاثمائة مقاتل من عرب العكيل ، والهيط ، والبرطلية ، والأودة باشي شيخ سليمان ، والتفنكچيباشي محمود ، والمفتـي ، والقاضي وغيرهم ؛ لأن ذلك اليوم كان يـــوم الثلاثاء يوم الديوان ، فكان الحرب بينهم ثلاثة أيام ، فقتل من أهل مـــاردين نحـو ثلاثين رجلاً ، ومن عسكر المذكور نحو عشرة ، ومـا ذلك إلا لحصانـــة القصـر ورزانته ، وهذا القصر بناه الحاكم المار الذكر ملي زاده محمد نجيب بـك ، وكـان الفعلة مشتغلين بتعميره مدة حكمه سوى مـا كان به البناء القديم ، فجاء صرحـاً هامانياً ، وقصراً خِوَرنَقياً ، لا يعلوه شيء [ إلا ] القلعة ، وقد قدمنا أن أول مـن اتخذه داراً للحكم هو عبد القادر آغا السابق ذكره ؛ لئلا يطمع أحد فيما بعـد في نهب الحكام كما كانوا يفعلون لما قدمنا .

ثم إن خليل أفندي أظهر الاعتذار ، وتاب عن المقابحة ، وطلب المصالحة ، فأرسل القاضي هندي زاده محمد أفندي إلى جامع الكبير ؛ ليرى بين الفريقين ، فقاموا علـى المذكور وسلوا سيوفهم ، فانـهزم فأدركوه في بيت تحت الجامع فقتلوه شر قتلـة ،

فعند ذلك كف المرقوم كفه عن الحكومة ، وطلب النجاة ليصعد إلى القلعة ، ثم ليرحل إلى بغداد ، وصار الساعي في الصلح بين الفريقين خضر النجار ابن الپاشلي ، فأعطاه أهل البلد سنداً على أن لا يتعرض له أحد ، فصعد إلى القلعة ، وعرض حاله للوزير ، وعرض أهل البلد ، ومكث في القلعة نحو شهرين حتى أتى الخبر ببزوغ شمس الحكومة للحاكم السابق محمد سعيد آغا المارديني ، وتوجه المزبور سالماً نحو بغداد ، وكان استيلاء المذكور في رمضان سنة ١٢٣٩ ، وانعزل سنة ١٢٤٠ ، وحكمه سنة .

ثم حكم الحاكم السابق مرة رابعة محمد سعيد آغا وتوفي في محرم سنة ١٢٤١ ، وحكمه خمسة أشهر ونصف .

بين عيني كل حين

علم الموت يلوح

كلنا في غفلة والـ

موت يغدو ويروح

ولآخر :

إنما الدهر غرور

ولمن أصغى نصيح

و لسان الدهر بالو

عظ لواعيه نصيح

نحن لاهون و آجا

ل المنايا لا تريح

ولآخر:

إنما الدنيا كأف

أو كدولاب يلف

أو كخياط سريع

كلما شـــل يكف

وكفا بالوت واعظاً .

ثم حكم مرة ثانية العزب آغاسي داود آغا بن الحاج حسين آغا ، فإنه لما قـــدم نزل بقرية الكوللي ، وحضر إليه أمراء العشائر ، وانتشر الخبر بالبشائر ، أرســل إلى ماردين في إحضار الوجوه ومن يرجوه ، فقال بعضهم :نذهب ولا نرهب ، وقـــال بعضهم : نرهب فلا نذهب ، فانهزم فرقة إلى الغرس كالمفتـــي حاج أحمد أفنـــدي ، وإسماعيل آغا الملي ، وأطاع الباقي كالقاضي محمد نجيب أفندي ، والداشية ، فخلـع على المطيعين ، وأرسلهم سالمين ، ثم قبض على الأوده باشـــــي شـــيخ ســليمان المشكيوي ، وأتى به محمولاً على الأدهم ، وحبسه في القلعة ، وعذبه بعذاب بئيس ، واستخرج منه مائة كيس ، ثم صلبه ، كما قيل :

ومدَّ على صليب الصلبِ منهُ

يميناً لا تطولُ إلـــى شـــمالِ

و نكّسَ رأسَهُ لعتاب قـــلبٍ

دعاهُ إلـــى الغوايةِ والضلالِ

وشرع الحاكم المزبور برفع البدائع التـــي وضعها الحاكم كالنرخ والمســاودة ، إلا أنه كان مولعاً بضرب السياط ، فإذا أمر بضرب أحد ضرب الطبول لئلا يســمع صوته إذا استغاث ، ومات من ذلك عدة رجال ، فدخل الرعب في قلوب النـــاس ، وبطلت منهم الحواس ، وسطى عليهم نحو ثلاثة أشهر حتى اتفق فرقة من أهل البلـد على قتله أو عزله ، فلم يوافقهم على ذلك أكثر الخلق ، إلا أنه خمدت مـــن ذلــك اليوم حرارته ، وانطفأت شرارته ، وجعل يتملق إليهم بعدما كانوا يتملقون إليـــه ، وكل شيء تجاوز عن حده انقلب إلى ضده ، ويقال : إن ذلك كان مـــن تحريــك الداشية ، فأضمر عليهم الحقد وأساء النـــية ، فخرج حينئذ إلى البرية ، وأســـرَّ إلى

بعض أهل البلد أن ينـــزلوا عليهم بصاعقة البلية ، وليبذلوا جهدهم في إهلاكـــهم وقتلهم ، ويلحقوهم بمن مضى من قبلهم ، وأما أهل ماردين كان لهم تنـــافر مـــن الداشية لأفعالهم الردية ، فصالوا عليهم صولة البين ، وتحصنت الداشية في قصرين ، في قصر محمود بن فتاح بك ، وقصر أحمد بن خليل ، أما قصر ابن فتاح بك تسلقوا بالسلالم إليه ، ونزلوا كالقضاء المنـــزل عليه ، فقتلوا المزبور وقتلوا أخاه مع اثنـــين آخرين ، وقتلوا في الأزقة اثنـــين ، وقبضوا على اثنين ، وقتل الحاكم عنده أيضـــاً اثنـــين ، وأرسلوا رؤوسهم إلى بغداد وذلك في رمضان سنة ١٢٤١ ، وأما الذيـــن كانوا في فصر خليل انـــهـــزموا ليلاً ثم هدم ديارهم ومحا آثارها ، ونقـــل إلى داره أحجارها .

وفـــي هـــذا العام هاجت الينكچارية على السلطان محمود خـــان ليـــهلكوه ويقيموا ولده مكانه ، فحاربوه برهة من الزمان ، فأعطى الله تعالى النصر للسلطان ، فقتل منهم ألوفاً ولكوكاً ، عبيداً وملوكاً ، ونسخ ذكرهم مـــن ديوانـــه ، وأن لا يكونوا من جنده وأعوانه ، وأرسل إلى البلدان منشوراً برفعهم ، وذلك لقلة خـيرهم ونفعهم ، فامتثلوا لأمر السلطان محمود اقتفاءً للشروط والحدود ، ولم نسمع بنســخ الأوجاغ المرسوم منذ أنشأه أورخان المرحوم ، وأنشأ غيرهم وسمـــاهم بالعســكر المنصورة المحمدية .

وأمر السلطان بطباعة كتاب ( ترجمة السيَر الكبير ) الذي متنه للإمام محمد بـــن الحسن الشيبانـــي ، وشرحه لشمس الأئمة السرخسي ، وكـــان قد نقلـــه رجـــل يدعى : ( منـــيب أفندي ) في أيام السلطان سليم من لســـان العربيـــة إلى لســـان التركية ، وتوفي المنـــيب وبقي في مسوداته إلى زمن السلطان محمود ، فأمر لـــدار الطباعة أن يطبعوا منه ألف مجلد ونحوه ، وفرقها مجاناً على البلـــدان ؛ لاشـــتمال السِّـــيَر على الحرب والجهاد وكيفية أحكامه ، والغرض من ذلك ترغيب النـــلس في الجهاد ، وطلب الإطاعة من العباد .

وفي هذا العام أيضاً هجم أهل الموصل على وزيرهم يحيى باشا الجليلي ونهبوا أمواله ، فانهزم إلى بغداد فأمده الوزير داود باشا بسرية من الجيش حتى دخلها عنوة ، وقتل من شاء ، وعفا عمن شاء وتشتت أهل الموصل في البلاد ، حتى بوع في الموصل وزنة الحنطة بأربعين قرشاً ، على ما قيل ، فكانت كما قيل :

إلى متى أنا لا أنفك من بلد
رهين جيمات جور كلها عطب
الجوع والجور والجيران والجدري
والجهل والجبن والجردان والجرب

ولنرجع إلى ذكر الحاكم داود آغا وعداوته مع من طغى وبغى ، فإنه لما دخل رعبه في قلوب أهل الجبل والبرية ، وانسلبت عنهم الأمنية ، اتفق القاصي والدان ، سوى أمير الأومريان ، وأرسلوا مكتوباً إلى أهل ماردين ، وهددوهم تهديد المعاندين ، أن أخرجوا داود آغا من بينكم واطردوه ، وأصرموا حبال وده ولا تودوه ؛ لأنه لا عقل له ولا دين ، وحاشا لمثله أن يكون حاكماً بماردين ، فأجابهم أهل ماردين بأن أطعنا أمره وعصيناكم ، وإن لم تأتونا أتيناكم ، فعندها جمع الأكراد جندهم ، ومن كان عندهم ، وكان رؤساءهم في ذلك الخطب علي الإبراهيم الملي ، وأمير الأشتية ، وشيخ الطي المعزول ، وأمير الدقورية ، وأمير الكيكية ، ودهقان الغرس ، وأيوب الشمدين السركچي ، ويقال : إن معاداة العشائر كانت بتحريك أيوب بك بن تيمور باشا إسكان باشي أرفه ، لأنه العمدة في العشائر والقبائل ، وغرضه تخريب ديرة ماردين ؛ لينتقلوا إلى أرضه كارهين ، فكان كما أراد وانتقل إليه أكثر الأكراد ، فجاءوا بعساكر كالتراب ، وأحاطوا بالبلد من كل باب ، فخرج إليهم الشبان كأنهم قضيب البان ، كما قيل :

ومن في كفِّهم منهمْ قناهُ
كمنْ في كفِّه منهمْ خِضابُ

والداعي يقول : اللهم اكفهم مخاشي اللأواء ، واكفهم بغواشي الآلآء ، ولا تظفر بهم أظفار الأعداء ، إنك سميع الدعاء .

فلما نظروا إلى الفرسان ، ورموهم عن قسي الحواجب بسهام الأجفان ، هجموا أولاً على عسكر الغرس ، وعادوا فرحين كالعائد من العرس ، ثم انقضوا من سماء الفردوس كالشهب ، وطووا رداء شبابهم كطي السجل للكتب ، وبارزوهم بسيوف الحتوف ، ورماح الملاح ، وطبنج الإفرنج ، وتفنك الجنك ، فكسروهم وعادوا - بحمد الله تعالى - سالمين ، وقتل من الأكراد شيء قليل ، فلما وقع في قلوبهم الهيبة ، وآل أملهم إلى الخيبة ، أرسلوا يتوقعون عند وزير آمد محمد أمين باشا الملقب بأبي لبّود ، فصار المرقوم من المصلحين ، وأرسل رجلاً في ذلك من خواصه المقربين ، فامتثل داود آغا أمره العالي بالرضا ، وعقد الصلح معهم على أن مضى ما مضى ، ومضى على ذلك شهر أو شهران ، فأتى الخبر بعزله في ذلك الزمان ، وارتحل إلى بغداد ، وكان قدومه في شهر ربيع الأول سنة ١٢٤١ ، وارتحاله في جمادى الأخر سنة ١٢٤٢ ، ومدة حكمه سنة وأربعة أشهر .

ثم حكم أحمد آغا الأربلي ابن أخي يونس آغا السابق ذكره ، ولم يتوفق له الأمور ، واختل نظام حكمه غاية الاختلال ، وفي أيامه هجمت العربان على العشائر ونهبوها ، ونَهبوا الزرع ، وتشتت الرعية في الأقطار أيادي سبأ ، وخربت قرى الكيكية بتمامها ، وقرى الشيخانية بأسرها ، وقرى الخواص بجملتها ، وكذلك نصيبين وما حولها ، وما بقي سوى عامودا وحرين وبعض قرى الپيران علي ، كما قيل :

وبلدة ليس بها أنيس

إلا اليعافير وإلا العيس

ووقع القحط والغلاء في سائر المأكولات ، وكان قدومه في رجب سنة ١٢٤٢ ، ورحيله في ذي الحجة ١٢٤٣ ، ومدة حكمه ستة أشهر .

ثم حكم الكرجي عبد الله آغا ، فإن الوزير داود پاشا أدام الله تعالى حياته أطلق لحية المرقوم وأمده بخمسمائة مقاتل ، وأعانه بمقدار من الدراهم ، وأرسله لتعمير العشائر وترميم القبائل ، فلم يتيسر له ذلك ، ومدة حكمه سنة .

وفي هذا العام ، أعني ١٢٤٣ في شعبان ، قام أهل آمد على وزيرهم أبو لبّود ونهبوا أمواله ، وقتلوا المفتي حاج خليل أفندي بجامع الكبير ، وانهزم الوزير إلى الرها ، ثم إلى بغداد ، واستعفاه حضرة داود پاشا من الدولة .

وفي هذا العام أيضاً في رجب أمر وزير بغداد داود پاشا بصلب داود آغا حاكم ماردين السابق فصلب .

ثم حكم التاتار آغاسي السابق محمد سعيد آغا ، وجاء بشرذمة من الهيط ، ونزل بهم في نصيبين ، ثم غار على قرية عامودا ونهبها ، واستخرج ما كان في آبارها من الحنطة والشعير ، إذ أهلها كانوا قد انهزموا إلى الجبال خوفاً من الطاعون الذي وقع فيهم ، فلما كان بعد شهر نزل أميرهم خليل آغا إلى السنجق ، واجتمع إليه جملة العشيرة - أعني : الدقورية - فخدعهم الحاكم بالصلح ، وواعدهم به حتى اطمأنوا ثم غار عليهم بعسكر الهيط والملية ، ونهبوا أموالهم وأغنامهم بأسرها .

وفي أيامه خلت البرية بأجمعها عن السكان ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، والسبب في خرابِها عدة أمور :

أحدها : تسلط عليها عرب يقال لهم : عرب العنزة ، وهم قوم ألوف ولكوك ، وهم عشائر وقبائل يقال لهم شمَّر ، ومنهم يقال لهم : الجرباء ، ومنهم يقال لهم : الصايح ، إلى غير ذلك ، وأصلهم من بلاد نجد من جنود الوهابي الذي استولى على الحرمين الشريفين ، فلما أخرجهم والي مصر محمد علي پاشا عن بلاد الحجاز وبلاد نجد تفرقوا في البلاد من نواحي الشام إلى حدود العراق ، وطفقوا

ينهبون القبائل والعشائر حتى تضجرت منهم الخلق ، ولهم خيول سوابق لا يـــدرك شأوها وفيهم فرسان وشجعان كأنـــهم البنـــيان [١٢٥] .

وثانيها : نزول الطاعون حتى مات أكثرهم .

وثالثها : ظهور الجراد منذ ثلاث سنـــين ، كلما زرعوا وفلحوا ظـــهر الجـــراد عليهم ، حتى نفد زادهم ، وتفرقوا أيادي سبأ ، وغالبـــهم انهزمـــوا إلى ضواحـــي دياربكر ؛ لسلامة زرعهم عـــن الجراد .

ورابعها : جور الحكام ، ولا حاجة في ظلمهم إلى تطويل الكلام .

حتى صار الوافد من الموصل إلى ماردين لا يصادف في طريقه من الإنس ديَّـاراً ، ولا من ينفخ ناراً ، ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [١٢٦] .

وفي هذا العام ـ أعني في سنة ١٢٤٣ ـ استولى الطاعون على جميع الممالك مـــن الشام إلى العراق ، ثم إلى أرزن الروم ، ثم قيصر وسيواس ، والعجـــم ، والبـــا ، والموصل ، وماردين ، وآمد ، وهو طاعون مخالف لقبله من الطواعين ، إذ كان مـــن المجربات انه يحل أولاً بأرزن الروم ، ثم إلى دياربكر ، ثم إلى ماردين ، ثم إلى الموصل ، ثم إلى بغداد ، وهذا وقع بعكس القضية ، وكان من المجربـــات أيضـــاً أن القحـــط والغلاء يأتـــي إلى ماردين من قبل العراق ، وهـــذا كان بطرد القضيـــة كالمعتـــاد

(١٢٥) للمؤلف ـ غفر الله له ـ موقف سلبي واضح من دعوة الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وذلك تأثراً بالدعاية العثمانية التي صورت دعوة الشيخ الإصلاحية بأنـــها تمرد سياسي وخروج عن منهج أهل السنة ، لذلك نجده وفي أكثر من موضع يوصم دعوة الشـــيخ الإصلاحية بألفاظ وعبارات غير مهذبة تنم عن عدم معرفته بحقيقة دعوة الشيخ ، والغريب أنـــه لفرط جهله بواقع هذه الدعوة وسير رجالها لا يعرف من أسماء دعاتـــها إلا ( السعود بن عبـــد الوهاب ) فقط ، فتأمل ! وحول الدعاوى التي أذاعها العثمانيون ضد دعوة الشيخ يراجع كتـــاب ( دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض ) لعبد العزيز بن محمد العبـــد اللطيف ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٢ هـــ .

(١٢٦) سورة غافر من الآية ١٦ .

القديم ، توفي الحاكم المزبور في روضة الفردوس بعلة الطاعون في غرة ذي الحجة سنة ١٢٤٣ ، ومدة حكمه ثلاثة أشهر .

ثم حكم من بعده الحاج أحمد أفندي المفتي فأول ما تولى الحكومة أمر بحبس دباغ زاده محمد أفندي بالقلعة ، ثم بعد أيام أمر بقتله ، ووقع بين الويوده المرقوم وبين الألآي بكي علي بك عداوة أدت إلى أن أراد قتله أو إخراجه عن البلد ، فأحس علي بك بذلك ، وافترقت أهل ماردين فرقتين من باب المشكية إلى جامع الكبير ، والبرطلية من القلعة كانوا في متابعة الويوده ، ومن الجامع المذكور إلى باب الصور كانوا بمعاونة علي بك ، وافترقت العشائر أيضاً فرقتين : منهم من تابع هذا ومنهم من تابع ذلك ، ووقع الحرب بين الفريقين ليلاً ونهاراً ، وامتد نحو خمسين يوماً ، وجانب علي بك كان أغلب من الآخر ، وعرض كل حاله إلى وزير بغداد ، وكانوا بمظنة عزله عن الحكومة ، فأتاه منشور بتأكيد الحكومة ، فتقاعدت عزائمهم ، وعجز كل من الفريقين عن حرب الآخر ، فاضطروا للمصالحة ، وكان أول الوقعة يوم الخامس عشر من ربيع الآخر إلى ثمان وأربعين يوماً سنة ١٢٤٤ ، ثم عقد الويوده المذكور عقد المحبة والمودة ثانياً مع علي بك حتى مضى عليه نحو ستة أشهر ، فسلط عليه في بيته عفاريت المشكينية ، وأرادوا قتله فانهزم فأدركوه عند جامع العاكلية ، فضربوه بخنجرين وسيفين ، واحتملوه إلى داره جريحاً ، وتوفي بعد ساعة في أواخر شوال سنة ١٢٤٤ ، وقيل : إن المشكينية قتلوه من غير علم الويوده وصاروا بعد ذلك عنده من المقربين ، وشرعوا في الجور والتعدي على الناس ، فما من ليلة إلا ويفتحون داراً أو حانوتاً بالحرامية ، وإذا صار النهار اشترى صاحب المال ماله منهم إن أمكنه ، فلما تمكن الويوده المذكور من الفرصة عليهم سلط عليهم بيرقين من البرطلية فظفروا بستة من رؤسائهم منهم التفنكچيباشي مراد بك والأوده باشي شيخموس وذلك في شهر محرم سنة ١٢٤٦ .

وظهر في أيامه قرال الأوروس ـ أعني : مسقوف ـ وتسلط على ممالك الروم أيلي ، ونهب وأسر ، ثم أتى من باب الأبواب ـ أعني : دمر قابو ـ فاستولى على مدينة أقسقه ، والقرص ، وأرزن الروم ، وأهلك الحرث والنسل ، وقبض على الوزير صالح باشا ثم صالحهم السلطان محمود على تسليم تلك البلاد سوى أقسقه فإنه عمرها بعدما كان قد هدمها وأسكن فيها من نصارى تلك النواحي وذلك سنة ١٢٤٤ .

وفي العام المذكور كان أنشأ السلطان نظام المحمدي الجديد [١٢٧] ، وأمرهم بتبديل زيهم بزي الفرنك سوى ملبوس رأسهم فإنهم لبسوا الفيس الأحمر فقط ، ونسخ جميع ملبوسات العثمانلية حتى الوزراء والحكام [١٢٨] ، ولبسوا هذا الزي وانتشر ذلك في البلاد ، ونهى عن الطبول والبورزان ، وفرض على بعض البلاد ممن يسكن الحوانيت والخانات ست مصريات في اليوم إعانة لعسكر النظام .

وفي العام المذكور ـ أعني : سنة ١٢٤٦ ـ عصى داود باشا على السلطان ، وقتل رسوله محمد صادق أفندي الدفتردار ، ففوض السلطان وزارة بغداد لوالي حلب علي باشا ، وأمده بالعساكر والذخائر ، وأضاف إليه حكومة دياربكر وأرفا ، وأمره بتأديب داود باشا ، وينتزع من يده مدينة بغداد ، فامتثل أمره ، وقدم على ماردين بنحو عشرين ألف مقاتل ، فأطاعه الحاج أحمد أفندي ، وسلم إليه القلعة ،

---

(١٢٧) وهو التنظيم الجديد للجنود البديل للإنكشارية ، وكان على الطريقة الأوربية ، وقد استفاد السلطان في ذلك من المدربين الأجانب وسار بالبلاد مجارياً الدول الغربية . وانظر : التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ( ١٦٩/٨ و ١٧٠ ) .

(١٢٨) بل حتى السلطان نفسه نزع العمامة والجبة وتزيا بالطربوش والزي الأوربي ولم يبال بأقوال المعترضين ، وكان السلطان محمود هو أول من أحدث هذه البدعة في أرجاء الدولة العثمانية .

فوضع فيها من عسكره ، ثم عزل المذكور عن الحكومة ، وذهب به إلى بغداد في شهر ذي القعدة من التاريخ المزبور ، وكان مدة حكمه سنتان وعشرة أشهر .

ثم حكم زينال بك الكلسي قبل فتوح بغداد ، ومدة حكمه خمسة أشهر .

ثم حكم أبو بكر أفندي بن الحاكم السابق الحاج أحمد أفندي المفتي ، والسبب في ذلك ما قدمنا أن الوزير المظفر علي باشا يسر الله تعالى له ما شاء قدم إلى ماردين وضرب خيامه بقرية حرّين ، ويسر الله تعالى لنا معه المواجهة والملاقاة ، وأهديت له رسالة مهملة خالية عن النقط في شرح البسملة والفاتحة الشريفة ، فوقعت لديه موقع القبول ، وأكرم نزلي ومثواي ، وكان أيضاً قد ألفت للوزير داود باشا من قريحتي القريحة حينما تولى الوزارة شرحاً للكافي في فني العروض والقوافي ، وكان قد أكرمني من مال جزية ماردين كل يوم قرشاً ، فزادها الوزير المذكور - أطال الله تعالى بقاءه - وعملها كل يوم قرشين . ونظم أحوال البلد ، ثم أناخ على مدينة الموصل ، فأطاعه حاكمها الحاج قاسم أفندي العمري أيضاً ، ونظم أحوالها ، وقسم المذكور عسكره قسمين : فرقة أرسلها على برية تكريت ، وجعل مقدمهم في ذلك الكهيا الحاج بكر آغا الحلبي ، وحاج أحمد أفندي ، وقاسم أفندي ، وفرقة ذهب بها الوزير على طريق كركوك . وكان من القضايا الاتفاقية حينما انفصل الوزير عن حلب طغى ماء دجلة حتى أهلك الثلث من بغداد بأهله ، ووقع بها طاعون عظيم حتى أفنى نصف من بقي منها ، وانفل جيش داود باشا ، وفسدت ذخائره ، ووقع في ضيق عظيم ، ومرض مرضاً شديداً من علة الطاعون ، وقلت أعوانه وأنصاره ، كما قيل :

فلا صديقَ إليه مشتكى حزني
ولا أنيسَ إليه منتهى جذلي

ولقوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ الآيــة [١٢٩] فلما قدم الكهيا بمن معه وأناخ على قارشي يخه شحذ داود باشا ذهنــه وتفكــر في تدبير الحيل ؛ ليخدع المرقومين ، فاستدعى بصالح بك بن سليمان باشا وكفّ يــده عن الوزارة ، وفوض للمرقوم ، ووعده بتسليم أمواله كافة ، ورهبه من علي باشا ، فانخدع صالح بك بمقاله ، وأدخلوا الكهيا ومن معه إلى بغداد بالحيلة ، وقاموا عليهم بعد يومين وحاصروهم في السراي ، فطلبوا منهم الأمان فانهزم الكهيا ، وقبضــوا على حاج قاسم أفندي حاكم الموصل ، وحاج أحمد أفندي حاكم ماردين ، وقتلــوا من شاءوا من العسكر ، وسلبوا من شاءوا ، وقتلوا أيضاً الحاكمين المذكوريــن ، وأيقنوا بالظفر والسلامة ، ولم يعلموا بما سيحصل لهم من الندامة ، فــاتصل الخــبر بالوزير فاستشاط غيظاً ، فقدم إلى بغداد ، وأناخ في قرية الإمام الأعظم ـ رحمــه الله تعالى ـ واجتمعت لديه العشائر والعربان ، وشرع في محاصرة بغداد ، وحاصرها نحــو شهرين ، وفي تلك المحاصرة رقّ للحاكم المذكور وفوض له حكومة ماردين جبراً لمــا أصابه من قتل والده الحاج أحمد أفندي ، وفوض أيضاً الباش أعيانــية لملــي زاده الحاج أسعد بك بن إسماعيل بك ، وأرسلهما مكرمين إلى ماردين .

ثم فتح الله تعالى على الوزير بــأن أطاعته محلة الشرقية ومحلة الشيخ الكيلانــي ـ قدس سره ـ وفتحوا لعسكره الباب ، فدخلوا ، وتوسطوا البلــد ، واضطــروا بأجمعهم إلى التسليم حتى الوزير داود باشا ، فإنه لما قدم على الوزير علي باشا بعــد أخذ العهد والميثاق ، فقام له وعانقه وأكرم نزله واستعفاه من السلطان ، وأرســله بحرمه في الهودج إلى مدينة بورسه سالماً مكرماً .. ثم دخل بغداد وفاز بنــيل المراد ، وقتل صالح بك بن سليمان باشا ، وكافة رؤساء الكرج ، وأرســل برؤوســهم إلى الدولة العلية ، وكان فتوح بغداد يوم الخميس السابع من ربيــع الثانــي ســنة

(١٢٩) سورة يس من الآية ٨٢ .

١٢٤٧ ، وكان استيلاء داود پاشا في ربيع الآخر لسنة ١٢٣٢ ، ومدة حكمه (١٦) سنة .

ولنرجع إلى ذكر الحاكم المذكور فإن الوزير لما نشبت أظفاره بقطان بغداد ، ونال منها ما أراد ، بادر إلى عزله ، ورخصه بالتقاعد في ماردين عند أهله ، وكان استيلاؤه في ربيع الآخر سنة ١٢٤٧ ، وعزله في أوائل رجب ، ومدة حكمه شهران ونصف .

وفي هذا العام ظهرت نار من البحرين تونس ومالطا ، ومكثت أياماً حتى عاد البحر يبساً .

ثم حكم المنامانجي الأعور الحاج محمد آغا القيصري من قبل علي پاشا ، وكان استيلاؤه في شعبان وعزله في ذي القعدة لسنة ١٢٤٧ ، ومدة حكمه أربعة أشهر .

وفي هذا العام - أعني السبعة وأربعين بعد المائتين وألف - استيلاء إبراهيم پاشا وكان بمدينة عكا وزير من عبيد أحمد پاشا الجزار يدعى بعبد الله پاشا أظهر نوعاً ما من العصيان على السلطان محمود خان ، فأرسل على تأديبه محمد علي پاشا الوالي بمصر حتى ينتزعها من يد المذكور ، فامتثل محمد علي پاشا أمره ، وأرسل لاستخلاصها ربيبه ، أعني ابن زوجته التي تزوجها بمصر وهو إبراهيم پاشا ، وأعانه بولده لصلبه عباس پاشا ، فاضطر عبد الله پاشا إلى الالتجاء بأكناف السلطان محمود ، فعفا عنه وأرسل إلى محمد علي پاشا أن يكف عن الحرب ، فلم يلتفت إلى مقال السلطان ، وبارزها بالحرب والطعان ، حتى طحن سورها في ذلك الزمان ، وقبض على عبد الله پاشا وأرسله إلى مصر مع الشجعان ، ثم طاف المذكور على بلاد الساحل وكافة العربستان ، وإلى هذا أشار بعض شعراء حمص حيث مدحه من قصيدة طويلة منها قوله :

لما غـــزا أرض الســـواحل سلمت

طـــوعـــاً فأرخص قوتَها بعد الغلا

وأفـــاض في القدس الشريف بنانه

بحراً و لـــكـــن كان منهله صلا

و لـــقد أبـــى التسليم والي عكة

وغـــدا يـــواعد كالـــهباء معللا

غرته أسوار بـــهـــا ومـــدافـــع

فلذا أصـــر على القتال وعـــولا

حتى إذا رميت بنار حـــصـــارهم

واستمطرتـــها بالرصاص بنو جلا

بمدافع مـــا إن لـــهـــا من دافع

و قنابر تحكي القضاء المـــنـــزلا

لـــو شام يوماً حربـــها أسكندر

لانـــدك محكم ســـده و تفصلا

مـــا كان لولا الحلم أهمل أمرها

لكن أبـــى سفك الدماء فتمهلا

فلم يقدر على فتحها على الفور ، فترك عسكره حولها يحاصرونـــها ، ومضـــى إلى طرابلس ، وما يليها ، وإليه أشار بقوله :

وإلـــى طـــرابـــلـــس سعى ليغيثـــهـــا

ويـــبـــيـــد عثمان الخـــؤون الأرذلا (١٣٠)

---

(١٣٠) في هامش المخطوطة: وهو عثمان پاشا الوالي بطرابلس .

حـــتـــى إذا مـــا جـــاء حزب الله من
عـــكـــا وفـــيـــه أبـــو خـــليل أوّلا
بـــالـــرعـــب ولّى مدبراً مـــن خوفه
نحـــو الـــحـــمـــاة بـــحزبه متسللا
واســـتـــنـــجـــد الوزرا وجاء بجحفلٍ
لا ســـلـــم الرحـــمـــن ذاك الجحفلا
وأتـــى بـــهـــم للـــرستَنِ المشهورِ إذْ
بـــيـــن الـــمـــقابر قد تستر و اختلا
حـــيـــث الـــجهاديون حل و زيرهم
فـــي بـــاب حمص وقد أبى أن يدخلا
قـــامـــت بـــخـــدمته و طاعة أمره
حـــمـــص إذ امتثلت ولـــم تبد القلا
حتى إذا نـــفـــدت ذخـــائـــره ومـــا
ألـــفـــى بـــحمص للعساكر ماء كلا
أمضى إلـــى أرض الـــقُصَيـــرِ ركابه
يـــبـــغـــي العساكر أن تقوم وترحلا
وهـــنـــاك صادمهم وفرق جـــمعهم
فـــي جـــوسةٍ والبـــر بالقتلى امتـــلا
بـــالـــويـــل فـــرّوا هاربين إلـــى حِما
حـــمـــصٍ وكان الـــيـــوم يوماً أجولا
قـــد كـــان ذاك النصـــر أول مـــرة
فـــألاً لـــمـــن عـــن ربه لـــن يغفلا

ولــبــعــلــبــك أتى و سار ميمما

أرض الــبــقــاع لــعــكة مترحلا

ظــنــوا الانــاة منه عجزاً عنهمــو

فــهــنــاك جــدَّ بفتحها واستعملا

واشــتــد هول الكرب عند هجومه

و لــظى الوطيس لكل قلب قد ضلا

ووزيــرهــا الــمــدعو عبد الله قد

أمــن الــردى ولأرض مصر أرسلا

الله أكــبــر إنــهــا لــوقــائــع

ومــصــائــب لــهم الإله قد ابتلى

أنــســتــك بدراً و النضير وخيبرا

وحــروب مكة و البسوس و كربلا

وأتــى دمــشــق الشام يبغي فتحها

صلحاً مــخــافــة أن تشان وتبسلا

بــرزت جــمــيــع رجالــها لقتاله

إلا وزيــرهــم الــجــبــان التنبلا

ذاك الــذي قــد غر قبل الحرب إذ

ســمــع الصراخ بكل ناحية عــلا

حتى إذا طلبوا الأمان أجــابــهــم

وأنــال كــلاً مــنــهــمو ما أمّلا

وســرى إلــى حمص ليقمع من غدا

فــي مــالــهــا و عقارها متخولا

وبــهـا العساكر والدساكر قــد حكت

قــطــع الــظــلام إذا بــدا متنصلا

بـــبـــحــيــرة الزنج استقر وقد سقى

مــن مــائــهــا الجم الغفير وأنــهلا

بالــجــانب الغربــي من صحرائــها

عــبــى الــجــيوش وللطلائع أرسلا

فــهــنــاك باشرت الحروب بنفسهــا

وزراء ســوء فــسقهم لــن يــجهلا

زحــفــوا إلــيــه كالــجراد فأدبروا

لــمــا رأوه كــالسمرمــد أقــبــلا

ظنوا لــهــيــب الطــوب نار جهنم

حــيــث الإلــه لهم بــهــا قد نكلا

فــتــرى الكماة مبددين على الثــرى

والــخــيــل مــن وقع القنابر جُفَّلا

أضــحــت طعاماً للطيور لــحومهم

و دمــاؤهــم لــلمشرفية نــهــلا

واخــتــل عــقد نظامهم رعباً و قد

غطوا الرؤوس و لــم يغطوا الأسفلا

ومــحــمــدي نظامهم يــرميهــم

بــســهــام نــار ليس تخطى المقتلا

وإلــى حــمــاة الشام سار وبعدها

لــمــعــرة النعمان يــخترق الفلا

وغـــدا يـــجـــد السير فـــي آثارهم

بـــمـــواكـــب وكتائب لـــن تصطلا

حتى أتـــى حـــلـــب فـــلـــم ير منهم

إلا طريـــحـــاً أو جريـــحـــاً مـــبتلا

فـــهـــنـــاك انسرت بحسن قدومـــه

أشـــرافـــهـــا ولـــواء سؤددهم علا

وجـــمـــيـــعهم خرجوا إلى استقباله

مستبشرين و عنهم الكرب انـــجلا

ولـــكـــلس بالجيش جـــد وراءهم

وعـــن الـــفريسة ليس يبغي معدلا

وســـرت ســـرايـــاه لأنـــطاكيـــة

والـــنـــقـــع من وقع السنابك خيّلا

وبـــه ازدهـــت أسكندرونة بـــهجة

وغـــدت بـــأثـــواب المسرة تـــجتلا

ولـــقـــد تـــملك كل ما تركوا بـــها

مـــمـــا استحـــال أقـــلـــه أن ينقلا

وبـــأرض بـــيـــلان أدار رحى الوغى

و أثـــار حـــربـــاً وائـــلـــياً مشكلا

والـــقـــوم مـــن جزع كأفراخ القطا

يقظون نـــحـــبـــاً أن يرون الأجدلا

ذهـــلـــوا بصاعقة الـــمدافع فانثنوا

يترقبون إلـــى الـــســـلامـــة مدخلا

حتى إذا اقتحم البغاث بـبأسه
و على الجبال سما و أشرف و اعتلا

تركوا الذخائر والخيام وكلما
يخشون منه لدى الفرار تثقلا

ومضى يعض بنانه سردارهم
أسفاً على ما حل فيه من البلا

وكرام آدنةٍ أتت للقائه
يرجون منه بربعهم أن ينزلا

فأقام في تلك الرحاب ولم يزل
بالعز مرفوع المقام مبجلا

فاستولى إبراهيم باشا على هذه الممالك بأمر عمه محمد علي باشا حتى وصل إلى ضواحي قونيه لمحاربة الصدر الأعظم محمد رشيد باشا ، وكان قد جهزه السلطان لاستخلاص العربستان من يده ، وكان قد خرج الصدر ليحرس عسكره ليلاً ويتفقد أمره ، فمر على شرذمة من جيش إبراهيم باشا يزعم أنه من جيشه ، فقبضوا عليه غفلة ، وأحضروه بين يدي إبراهيم باشا ، فأرسله إلى مصر ، فاضطر السلطان إلى مصالحته فصالحه على أن يسلم ممالك العربستان ، وأن يؤدي للسلطان كل سنة كذا من الخزائن ، فرضيا بذلك وأطلق رشيد باشا ، وعبد الله باشا والي عكة ، وأرسلهما إلى إسلامبول سنة ١٢٤٨.

ثم حكم شيخ زاده عثمان باشا بن إبراهيم باشا الآمدي ، فإنه لما سبق له معه حضوره بفتوح بغداد أرسل علي باشا إلى الدولة واستوزره بطوغين الميرميرانية ، ومنَّ عليه بحكومة ماردين ، فقدم إليها وكلَّف هذا العبد الفقير حمل الفتوى ، وأرسل عرضاً ومحضراً إلى الدولة العلية لجلب المنشور وقلَّدنيه ، وأني لست

لأمر الإفتاء أهلاً ، بل ظنه مني أمراً سهلاً ، وإلى الله المشتكى من زمان كثر فيه العتوق ، ولم يجر فيه الحقوق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان استيلاؤه في شهر ذي الحجة سنة ١٢٤٧ ، وانعزل في جمادى الآخر سنة ١٢٤٨ ، ومدة حكمه سبعة أشهر .

وفي أيامه قتل ملي زاده الحاج أسعد بك أربعة من الداشية في بيته على حين غفلة منهم ، ومن غير علم الحاكم المذكور ، وذلك في جمادى الأول من العام المزبور.

ثم حكم المنامنجي الحاج محمد آغا مرة ثانية ، ووقع بينه وبين الحاج أسعد بك عداوة أدت إلى أنه أراد أن يخرجهم عن البلد ، ويسلط عليه العشائر من القلعة فسبقه الحاج أسعد بك وضبط القلعة من يده بالحيلة ، وكان الحاكم المذكور حينئذ بقرية دنيسر فعرض أمره إلى الوزير علي پاشا ، فأتى الخبر بعزله ، وكان استيلاء الحاج أسعد بك على قلعة ماردين في أواخر ذي الحجة سنة ١٢٤٨ ، ومكثت في يده لما استولى عليها سنتين ، وسيأتي كيفية انتزاعها من يده إن شاء الله تعالى ، وكان استيلاء المنامنجي في رجب سنة ١٢٤٨ ، وعزله في محرم سنة ١٢٤٩ ، ومدة حكمه ستة أشهر .

ثم حكم ثانياً أحمد آغا الأربلي ابن أخي يونس آغا السابق ذكره ، فاشترط عليه الوزير علي پاشا باستخلاص القلعة من يد الحاج أسعد بك وانتزاعها منه ، فجاء ولم يتجاسر على ذلك ، بل تزوج بأخت المرقوم وتصاهر معه ، فأرسل الوزير له أمراً بمحافظة القلعة ، وأن يكون له خادماً في ذلك ، حتى أرسل الكهيا ملا حسين آغا لاستخلاصها ، فجاء ودبر الحيلة في ذلك ، فلم يتفق له لما كان قد حشتونا من الذخائر والجبخانات ، فكتم أمره وعاد إلى بغداد ، ولم يتيسر له المراد ، وكان استيلاء الحاكم المذكور في شهر محرم سنة ١٢٤٩ ، وعزله في محرم سنة ١٢٥٠ ، ومدة حكمه سنة .

ثم حكم ملي زاده الحاج أسعد بك المرقوم ، فإنه لما أصر على العصيان في القلعة خدعه الوزير بإرسال الحكومة لـه ، ثم عقبه بإرسال إينجه بيرقدار أوغلي محمد باشا ، فإن المذكور كان قد ولاه علي باشا مكانه على حلب حين توجهه لفتوح بغداد - كما سبق - ، ثم ولاه السلطان على كافة العساكر السلطانية في محاربة إبراهيم باشا لما قدم بالعساكر المصرية - كما ذكرنا - فانكسر جيش المذكور محمد باشا وانهزم بألفي مقاتل إلى بغداد ، وأقام بها ، فولاه على كركوك ، ثم أمره بأن يتوجه إلى ماردين وينزع القلعة من يد الحاج أسعد بك ، وأن يجعل بها عسكره كالأول ، فقدم ماردين بنحو أربعة آلاف مقاتل ، فلما أناخ على قرى الأشتية عصى عليه رئيسهم يوسف الخلف ، وامتنع عن إعطاء الميرة ، وتحصن بقرية مارباب ، فعدّل إليه المدافع حتى اضطر إلى التسليم ، فقبض عليه وعلى أخيه ، وأرسلهم إلى الدولة ، ونهب تلك لقرى بأسرها ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٢٥٠ ، ثم قدم وأناخ على حرزم ، فخرجنا إليه ، فأكرم مثوانا ، ثم رحل إلى السركچيه ، وضرب خيام الحرب على طزيان ونهبها ، وانهزم رئيسهم أيوب الشمدين ، فنهبها وأحرقها بالنار ، ثم تسربل بالبلاء وعاد نحو ماردين وطلب تسليم القلعة ، فأبوا عن النزول ، وسكن عند الترخان قلهسي ببيت مظلم ، وشرع في محاصرتها والشتاء قد أقبل بثلوجه ، والمذكور بجنوده وعلوجه ، وقطع العسكر ما حول البلد من الأشجار ، ووقع الناس في بلاء واجار ، وضرب القلعة بلغمين ، فصدم بلغم الأول باب الأول ، وهدم بالثاني باب الثاني ، وذلك في رمضان من العام المذكور ، فبينا يهم في استخلاصها ، وإذا ببشير قد قدم في تفويض ماردين وحكومتها لرشيد باشا الصدر السابق ، وانتزعتها الدولة عن بغداد ، وأضيفت إلى دياربكر ، وذلك في شوال من العام المذكور ، فرحل محمد باشا عن بغداد ، ولم ينل منها المراد ، فأرسل الرشيد حكومة البلد لحاج أسعد بك ، ثم استخلص القلعة من يده بالسهولة في شهر ذي القعدة ، وامتد الحصار نحو أربعة أشهر ، والباعث لقدوم

الرشيد لهذه البلاد أن إبراهيم باشا لما كسر العسكر السلطاني المولى عليه إينجه بيرقدار أوغلي محمد باشا على البلاد الشامية كاستيلائه على مصر والحجاز ، أرسل صدره السابق الرشيد لاستخلاصها ثانياً من يده ، وإدخالها في ممالكه ، فوقعت الهزيمة أيضاً على الرشيد ، وأخذه قبضاً باليد ، وأرسله إلى مصر ، ثم منَّ بإطلاقه بشرط إبقاء ممالك الشامية في يده ، وبلاد الشامية حدها من نواحي مصر إلى ماء الفرات ، فقدم الرشيد ودخل إسلامبول ، ودبر الحيلة مع السلطان أن يفتتح قرى الأكراد التي عصت على خربوط ودياربكر وماردين ، ويستخرج منها رجالاً ويدخلهم في زمرة النظام والردبف ؛ ليتكاثر عسكر السلطان ويذهب بهم لمحاربة محمد علي باشا وربيبه إبراهيم باشا ، ويأخذ منهما الانتقام ، وينتزع من يدهما الحجاز ومصر والشام ، ثم أدركه الحمام ولم يتم له المرام ، كما سيأتي عليه الكلام ، فأعطاه السلطان أيالة سيواس ، وأردفها بلاطية والچورم وخربوط والمعدنين ودياربكر وماردين وأورفا ، فقدم إليها وافتتح جميعها إلى بلاد الرواندوز ، وذلك كالزرقية وما حولها ، وأرسل أمراءها إلى الدولة ، وقبض على أمراء السليفية والزازا ، وعلى أيوب بك بن تيمور باشا الملي إسكان باشي الرها ، وعلى صفوك شيخ العرب الشمر ، وعلى أيوب السركچي ، وحمو الدنبلي وغيرهم ، وأطاعه جبال المحلمية ، ومدياث ، والصور ، والطور ، وجبل عفص ، وديركى ، وبرية ماردين ، والجزيرة وما حولها من البوهتان ، والهكارية ، وقبض على أمير الرواندوز محمد بك ، وأرسله إلى الدولة فقتلوه ، وأخذ من هذه البلاد عسكراً وأدرجهم في الرديف والنظام ، كما كان مطلبه الأقصى ومقصده الأعلى ، ثم قدم ماردين ، وافتتح قرى الأومريان ، ثم عاد إليها ، ثم عزل حاكمها الحاج أسعد بك ، وأرسله بحرمه إلى دياربكر ، وذلك في ربيع الأول سنة ١٢٥١ ، وكان استيلاؤه في محرم سنة ١٢٥٠ ، ومدة حكمه سنة وأربعة أشهر .

ثم حكم محمد بك الشهير بكوسه پاشا ، وفي أيامه حرروا ماردين فبلغت حاراتها (١٣) ، وبيوت الإسلام (١٨١٩) ، وبيوت النصارى (١٨٠٩) ، وبيوت اليهود عدد (١٨) ، ونفوس الإسلام (٢٩٤٣) ، ونفوس النصارى (٣١٩٠) ونفوس اليهود (٥٠) ، فبلغ جمع البيوت (٢٦٤٣) وجمع النفوس (٦١٨٣) ، ثم شرع في أخذ النظام في حزيران من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٠ ، وأخذوا نظاماً ورديفاً نحواً من ألفي نفر من ماردين ونواحيها ، وليتها نفعت ! وانهزم خلق كثير لذلك وتشتت أحوال الناس ، وباعوا أموالهم وأملاكهم ، وسلموا أثمانها لأولادهم ليصرفوها شفقة عليهم ، وتسلط الحكام في سائر البلدان ، وظلموا ظلماً يشيب منه الطفل الصغير ، وابتدعوا بدائع لم يبتدعها سلطان ولا وزير ، شربوا الخمور جهراً ، وسلبوا الأموال قهراً ، لم تجد فيهم من يوحد الواحد الديان ، ولا من يسجد للرحمن ، وكان المعين في ذلك الحين لحكام ماردين ناظر النفوس بكر أفندي ، والغرسلي إبراهيم ، ثم إن رشيد پاشا سافر إلى أكراد الببا ، وقبض على محمد بك أمير الرواندوز البارز إلى ميدان الخروج والطغيان ، وأتى به إلى دياربكر ، فأرسل محمد بك إلى الدولة ومكث فيها أياماً قليلة وأدركه هادم اللذات ، فتوفي بها ومات ، وذلك في غرة شعبان من هذا العام ، أعني : سنة ١٢٥٢ [١٣١] .

ثم حكم مكانه محمد پاشا المعروف بحافظ پاشا ، فقدم ماردين وذهب لافتتاح سنجار ، وكان فتحها في صفر سنة ١٢٥٣ ، وفتح آغجه داغ في ربيع الآخر من هذا العام .

ثم حكم پاشا بكندي محمد آغا في ربيع الآخر ، وحكمه أربعة أشهر .

---

(١٣١) وهي تقابل سنة ١٨٣٧ م وقد ذكر المؤلف قبل قليل أن أمير رواندوز محمد بك أرسل إلى الدولة فقتلوه ، ثم يذكر هنا أنه مات ، والصحيح أنه قتل ، قيل عندما كان آتياً إلى الآستانة في الطريق وقيل بعد مجيئه إلى الآستانة وذلك في محرم سنة ١٢٥٤ هـ .

ثم حكم ميرزه باشا ، وفي أيامه فرغ المعمارون عن بناء قشلاق نصيبين ، وكان بناؤها بأمر حافظ باشا ، وامتد بناؤها أكثر من سنين ، وذلك الفراغ كان في رجب سنة ١٢٥٣ ، وعمل المذكور ميرزه باشا باب الجديد عند الميدان في شهر صفر ، وفي أيامه سار حافظ باشا بنحو مائة ألف مقاتل من النظام والرديف والأسپاهية ونفير العام لمحاربة إبراهيم باشا ، وينتزع مصر والحجاز وحلب والشام وعكا ويلاد الساحل من يده ويد محمد علي باشا ، فالتقى الصفان بمكان يقال له : نزب ، وهو ثلاث ساعات من ماء البيرة ، فكان التقدير أن وقعت الهزيمة على حافظ باشا ، فلما انعكست أخبار هذه القضية لبلدة القسطنطينية صادف وفاة السلطان محمود خان ، وجلس مكانه ولده في تلك الأيام السلطان عبد المجيد خان ، وكانت الهزيمة يوم الاثنين الثلاث عشر من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ في أوائل حزيران ، وهذه كانت الكسرة الثالثة لعسكر السلطان محمود ، وكان جلوس السلطان عبد المجيد يوم الاثنين التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ وهو الثالث من تموز [١٣٢] .

وأما السلطان محمود هو الذي نسخ زمرة الينكچارية الذي أحدثها أسلافه من قديم وأنشأ أوجاغ النظام الجديد ، وكان قد أنشأه أولاً السلطان سليم ، وانتسخ بموته ، ودام ثلاث سنين ، ثم أنشأه السلطان محمود ودام أربعة أشهر ، ثم أنشأه ثالثاً وامتد إلى وفاته ، وهو أربعة عشر سنة ، ورتبه ترتيباً بموجب القانون نامه المقتبسة من قانونية المسقوف ، أعلاهم السرعسكر ، وتحت حكمه أربعة وستون طابوراً ، ثم المشير وتحت حكمه (٣٢) طابوراً ، ثم الفريق وتحت أمره (١٦)

(١٣٢) كانت وفاة السلطان محمود بن عبد الحميد في التاسع عشر من ربيع الأول من سنة ١٢٥٥ هـ ـ ١٨٣٩ م عندما كان وله من العمر خمس وخمسون ، وقد حكم اثنتين وثلاثين سنة ، وجاء بعده ابنه السلطان عبد المجيد الذي حكم اثنتين وعشرين سنة ومات في سنة ١٢٧٧ هـ ـ ١٨٦١ م . وفي أيامه توفي مفتي ماردين الشيخ عبد السلام مؤلف هذا الكتاب .

طابوراً ، ثم مير لواء زتحت حكمه (٨) طوأبير ، والطابور ثمانمائة نفوس ، ثم قائمقام ، ثم آلاي أميني ، ثم بينباشي ، ثم صاغ قول آغاسي ، ثم صول قول آغاسي ، ثم يوزباشي ، ثم ملازم أول ، ثم ملازم ثاني ، ثم باشچاويش ، ثم چاويش ، ثم جوك أميني ، ثم أونباشي ، ثم النفر ، وكلهم لهم عطايا من قبل السلطان ، بعضهم أكثر من بعض ، بهذا الترتيب ، وكان قد اجتمع تحت حكمه من عسكر النظام والرديف نحو مائتي ألف تقريباً ، والرديف أدنى رتبة من قوه نظام .

ثم حكم الحاج سليمان آغا الماردينـي ، تولى الحكومة من قبل سعد الله باشا المشير ، الوالي على ممالك دياربكر ، وكانت ماردين حينئذ من ملحقات آمد ، وفي أيامه صال نظام ماردين على ناظر النفوس بكر أفندي بن المتسلم السابق حاج أحمد أفندي يوم الثامن والعشرين من جمادى الآخر من العام المذكور ، أعني : سنة ١٢٥٥ ، وتوجهت حكومة ماردين لإينجه بيرقدار أوغلي محمد پاشا ، الوالي على الموصل ، وذلك في رجب من العام المذكور ، وأبقى الحاج سليمان آغا في حكومة ماردين ، ثم أضيفت إلى دياربكر في محرم سنة ١٢٥٦ ، ومدة مكثها ستة أشهر ، ثم أضيفت ثانياً إلى الموصل .

ثم حكم عبد الكريم پاشا من قبل سعد الله پاشا المشير بدياربكر حتى ألحقت إلى الموصل كما ذكرنا ، وكان مبدأ حكومة الحاج سليمان آغا في جمادى الأول سنة ١٢٥٥ ، وانتهاؤها في محرم ، ومدة حكمه (٨) أشهر ، ومبدأ حكومة عبد الكريم پاشا في محرم سنة ١٢٥٦ ، ومدة حكمه (٦) أشهر .

ثم حكم ثانياً الحاج سليمان آغا من قبل محمد پاشا وامتد حكمه شهرين . ثم حكم مراد أفندي فظلم وجار ، وعرض أهل البلد حالهم إلى وزير الموصل محمد پاشا فعزله ، وابتدأ حكمه في شعبان وعزله في ربيع الآخر ، ومدة حكمه تسعة أشهر ، وذلك سنة ١٢٥٧ . ثم حكم قائمقام الموصل محمد آغا ، فبعد قدومه

بشهرين قدم الوزير محمد باشا إلى ماردين ، وضرب خيامه شرقي البلسيق ، ومكث نحو ستة وعشرين يوماً ، ثم رحل عنها ، وتوجه في أواخر رجب نحو الموصل ، وأبقى المذكور محمد آغا ، وأضاف إليه الحاج سليمان آغا ليدبر لـــه الأمــــور ، وقلـــده المديرية ، ثم أردفها بناظرية النفوس ، وعصى على محمد باشا ملي زاده علي بـــك في قلعة العمادية ؛ لأنه كان قد نصبه متسلماً عليها كما كان قد عصى عليه قبـــــل في قلعة ماردين ، وأرسل مأموراً على ابن عمه عبد القادر بك وقبضوا عليــــه وعلـــى أولاد حاج أسعد بك وعلي بك ، وحبسوهم في القلعة ، وأما حاج أسعد بك كـــان يومئذ في بغداد ، وفي أيامه انعزل وزير بغداد علي الرضا باشا ، وتوجهت الحكومـــة إلى محمد نجيب باشا والي الشام ، فقدم منها ، ومر على ماردين ، وتوجه نحو بغداد ، وذلك في جمادى الآخر سنة ١٢٥٨ (١٣٣) .

قد وقع الفراغ من تسويد هذا الكتاب وهو من مؤلفات شيخنا ومرشدنا السيد عبد السلام أفندي المفتي المارديني ، نفع الله تعالى بعلومه كافة الطالبين آمين .

وقد وجد على النسخة المنقول منها هذا الكتاب قوله : وأنا الفقـــير إبراهيـــم المحمدي الشرابـــي بن ملا أحمد المهدوب ، وذلك في بلدة مـــاردين ، فجـــر يـــوم الأربعاء غرة شعبان المعظم سنة ١٢٥٩ ، والله الموفق والمعين ، لأجل أخينـــا في الله ملا مصطفى بن الروضة الماريني ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبـــه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

(١٣٣) وهي تقابل سنة ١٨٤٢ م وعندها ينتهي هذا الكتاب .



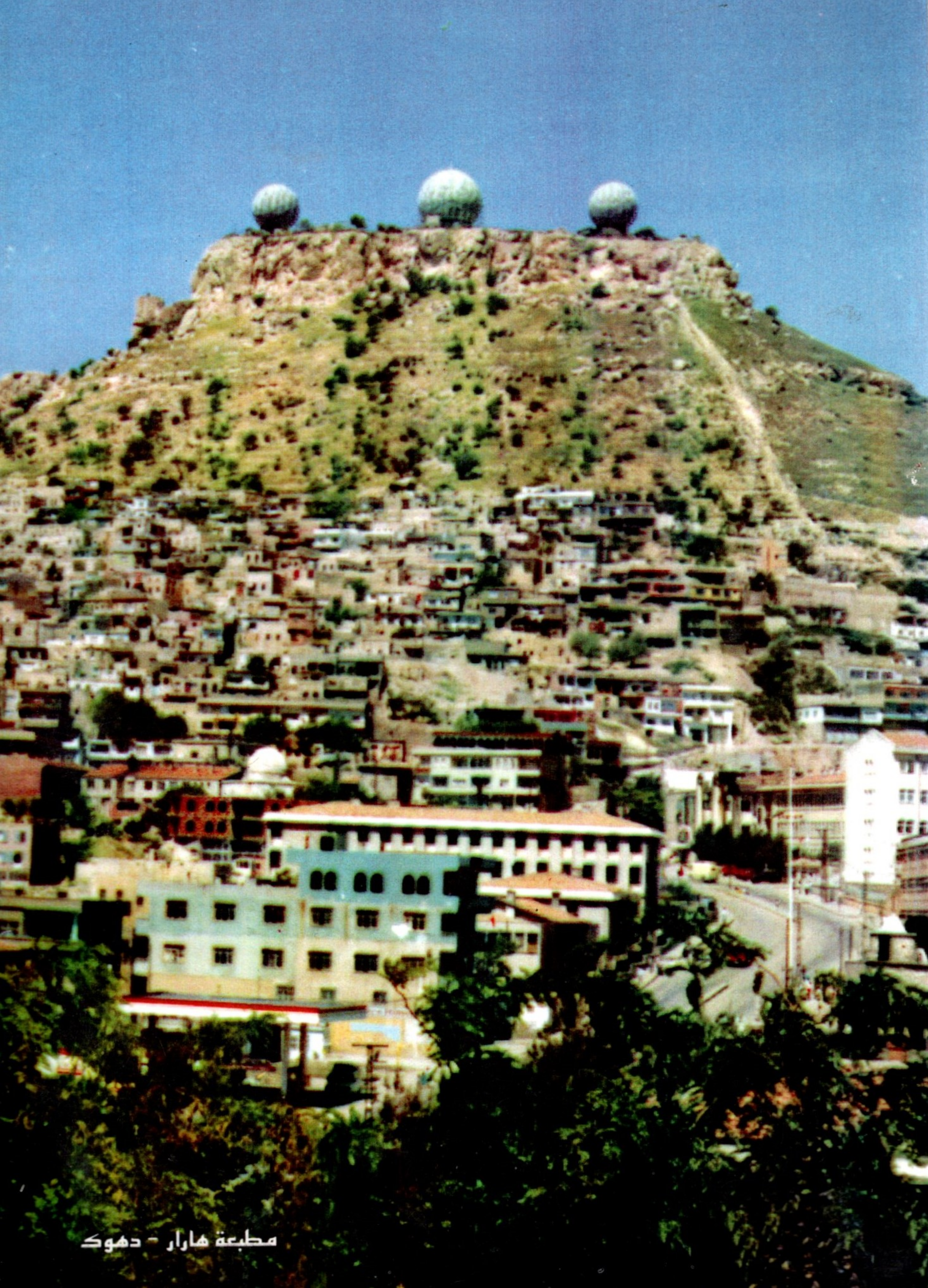
الطبقة الاولى في ذكر اولي العزم من الانبياء والحكماء
الطبقة الثانية في ذكر الملوك الماضية قبل الدولة المحمدية
الطبقة الثالثة في ذكر الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم اجمعين
الطبقة الرابعة في ذكر خلفاء بني امية واولهم سيدنا معاوية رضي
الله عنه الطبقة الخامسة في ذكر خلفاء بني العباس الطبقة السادسة
في ذكر ملوك شتى الطبقة السابعة في ذكر سلاطين آل عثمان
الخاتمة في ذكر احكام ماردين وحكامها والله تعالى الموفق وعليه التوكل
الطبقة الاولى في ذكر اولي العزم من الانبياء والحكماء
ولا يخفى انه [illegible] ذكر [illegible] الانبياء باسرهم بل نقتصر على ذكر اولي
العزم [illegible] وهم ستة آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد [illegible]

صورة من مخطوطة الكتاب

الصفحة الأخيرة من مخطوطة الكتاب

# الفهرس

* الكتاب: تاريخ ماردين من كتاب «أم العبر».
* تأليف: مفتي ماردين الشيخ عبدالسلام المارديني
* تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي - تحسين ابراهيم الدوسكي
* الغلاف: محمد ملا حمدي
* الكومپيوتر: مركز پاور للكومپيوتر - دهوك
* رقم الايداع (٥٦٤) دهوك - لسنة ٢٠٠١
* مطبعة هاوار - دهوك
* الطبعة الاولى - ٢٠٠٢



مطبعة هارار - دهوك